المرأة فى شعر البارودى

دراسة موضوعية وفنية

تأليف دكتور

بدر الدين سليمان أحمد محمد

مدر س الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

المرأة فى شعر البارودى

دراسة موضوعية وفنية

تأليف دكتور

بدر الدين سليمان أحمد محمد

مدر س الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أفصح العرب لساناً وأعلاهم بياناً، وعلى أصحابه الغرِّ الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

فهذا بحث بعنوان المرآة فى شعر البارودى دراسة موضوعية وفنية دعانى إليه ما قال به الدكتور محمد حسين هيكل فى تقدمته لديوان البارودى حيث نفى عنه صفة حب المرآة وأنه ما قال فى هذا الباب إلا من باب تقليد القدماء فعندما واتتنى الفرصة وقلبت صفحات الديوان فوجدته يغصُّ بالحديث عن المرآة حتى أنه يخيل لى ولكل منصف من الباحثين أن جل شعره فى المرآة فعقدت العزم على أن أحق حقاً وأعيد للرجل حقه الذى سلبه منه مقدم الديوان

وعلى الله قصد السبيل؛

د. بدر الدين سليمان أحمد محمد

مدرس الأدب والنقد بجامعة الأزهر

الشاعر محمود سامي البارودي ملء السمع والبصر وقد أتي هذا الشاعر في عصر ملئ بالأحداث الجسام، ومع ذلك وجدا الشعراء يعبثون، ولا يقدمون شعراً حقيقياً ، إذ لا يشغل الشعراء بقضية حقيقية ، فقد كانت قصائدهم في هيئة الشعر منمقة موزونة ذات ألفاظ إلا أنها لا حرارة في معانيها فكانت جلُّ قصائدهم في المدائح والتهاني والتعازي وشعر المناسبات وبعد أن أطلع علي شعر هذه الحقبة فوجده لا يرقي إلي الشعر القديم في مضامينه وفلسفاته أنكبَّ علي شعر العصر العباسي فوجد فيه بغيته فأقام موازنة فنية بينه وبين شعر معاصريه، وجاوز بين العصرين فأنتج لنا شعراً أحيا به تراث العباسيين والعرب ، وبعث في شعر عصره الروح من جديد مما حدا به أن يحْتذى في كل الأقطار العربية فحق له أن يسمي رائد البعث والتجديد .

البارودي هو (" محمود حسن حسني بك البارودي " ، وكان أبوه من أمراء المدفعية ، وأما عن جده لأبيه فهو عبد الله بك الجركسي ، فالبارودي جركسي الأصل ، وأما لقبه البارودي فنسبة إلي إيتاي البارود الحالية وهي إحدى مدن محافظة البحيرة وعاصمتها مدينة دمنهور ، وذلك أن جده الأمير مراد البارودي بن يوسف شاويش كان ملتزماً لها وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العصر إلي التزامه ، ويصل نسب البارودي إلي حكام مصر المماليك ، وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ، فكان له فيه أثر عميق في جميع أطوار حياته))[1] ولقد مات أبوه وهو في السابعة من عمره وبهذا فقد حرم من عطف الأبوة منذ نعومة أظفاره، فقد مات أبوه بدنقله فكلفة بعض أهله وضموه إلي عائلتهم

(١) أمراء الشعراء : السيد فرج – الهيئة المصرية العامة للكتاب صـ٢٩٢ .

وقد تلقى في بيتهم دراسته الأولي من الثامنة إلي الثانية عشرة من عمره وهذا خير كبير عليه كما يري الدكتور شوقي ضيف الذي جانبه الصواب عندما أطلق حكمه وقال: ((وكان من حسن الحظ لشعرنا الحديث أن أسرة البارودي لم تتجه به إلي التعليم الديني الذي كان ينهض به الأزهر لعصره ، إذ كان قد انتهي به إلي صورة جافة معقدة ، لعله لو اقتحمها لضلَّ في شعابها ومنعرجاتها ولما استطاع أن يخلص لنفسه ولا لشعره))[١].

وبعد ذلك يريد أن يؤكد ما ذهب إليه من أن التعليم العام لا يقل خطورة علي مستقبل البارودي الشعري عن التعليم الأزهري إذ يقول : ((وأيضاً فإنها لم تتجه به إلي التعليم المدني ، ونقصد به التعليم التجهيزي الذي انتشر في عهد محمد علي وظلت منه بقية في عهد عباس الأول ، لأن العناية بالشعر العربي في هذا التعليم كانت محدودة ولم يكن من شأنها أن ترضى أصحاب المواهب من أمثال البارودي)) [٢] .

ثم يعود الدكتور شوقي فيقول : وفي عهد عباس الأول دخل المدرسة الحربية ، فلم ترده عن مناهل الشعر العربي القديم بل لقد مضي يعكف عليها ويسرف في العكوف[٣] .

هذا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف وأجده قد جانبه الصواب كيف ذلك ؟ أولاً قال عن الأزهر أنه :

---

(١) البارودي رائد الشعر الحديث، د. شوقي ضيف دار المعارف، ط٥ ، صـ ٤٨ .

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث، د. شوقي ضيف دار المعارف، ط٥ ، صـ ٤٨ .

(٣) البارودي رائد الشعر الحديث، د. شوقي ضيف دار المعارف، ط٥ ، صـ ٤٩ .

لو وجِّه إلي التعليم الديني فى الأزهر الذي كان ينهض بـــالعلوم الدينية لانتهي به إلي صورة جافة ومعقدة ، كيف ذلك والأزهر درع العربية الواقي وحصنها الحصين الذي علي علومه تربـــي شـــعراء المسلمين من كل أصقاع الأرض وأنه كان النافذة الأكبر والأعظم التي يُطل من خلالها الشعراء والأدباء علي تراث العـــرب شـــعره ونشـــره وكأن الدكتور شوقي قد جهل أو تجاهل العلوم العربية التي تـــدرس بالأزهر حتى أن قواعد النحو صيغت في قالب شعري ليسهل حفظها مثل ألفية بن مالك وكذلك بعض المتون كالتحفة الجزية وكذلك علوم التوحيد وغيرها وشواهد النحو والصرف والبلاغة والعروض كلهـــا من دواوين الشعر عبر العصور المختلفة ومن هنا نقول لـــو وجِّـــه البارودي إلي الأزهر مع ما حباه الله به من موهبة شعرية لعاد ذلـــك علي شعرنا الحديث بالخير العميم ولم يكن كما قال: د.شوقي ضيف، ومن حسن الحظ لشعرنا الحديث أن أسرته لم تتجه به إلي الأزهـــر ، وكذلك التعليم المدني يعوقه عن العكوف علي دواوين الشعراء فـــي العصور القديمة ، نقول كيف يعوقه التعليم عن ذلك والتعليم قوانينه ليست صارمة كقوانين الحياة العسكرية في الكلية الحربية التي هـــي علي صرامتها لم تعقه بل الأعظم من ذلك أن الدكتور شوقي يـــروي عن الشيخ المهدي في مذكراته التي يقول فيهـــا : ((كانـــت اللغـــة العربية مضطهدة في عهد عباس الأول إلي حدٍّ أن من تكلم بها مـــن طلبة المدارس الحربية توضع فيه العقلة التي توضع في فم الحمـــار حينما يُقص ويبقي كذلك نهاراً كاملاً عقوبة له تحريك لســـانه بلغـــة القرآن في أثناء فسحته)) (١).

وبعد ذلك نرى الدكتور شوقي ضيف يتبع هذه الروايـــة بقولـــه ((وفي هذه الأيام من عهد عباس الأول دخل البـــارودي المدرســـة

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ، صـــ ٤٨ .

الحربية ، فلم تستطع أن ترده عن مناهل الشعر القديم بل مضى يعكف عليه ويسرف في العكوف، وكأنما أصبحت جزءاً منه))[1].

إذن هذا كلام بين الخلط والخطأ إذ كيف أن الأزهر مهد اللغة العربية والمائدة الثرية بها وبعلومها يكون مصدر الجفاف والتعقيد للبارودي وأمثاله من الشعراء، والمكان الذي يحظر عليهم فيه حتى النطق بالعربية ولو بنت شفة يعاقبون عليها يكون هو المكان الرحب للعكوف علي دواوين الشعراء والتأثر بهم وكان الأولي بالدكتور شوقي أن يحق الحق فيقول ولو أنه وجّه إلي الأزهر ونال قسطاً من التعليم المدني لعاد ذلك علي الشعر الحديث بالخير العميم .

وتخرج البارودي من المدرسة الحربية في أخريات سنة (١٢٧١هـ ، ١٨٥٤م) وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ إلي عباس الأول ، ثم إلي سعيد ، وكان عباس قد عدل الخطة التي بدأها محمد علي حين رأي الدولة العثمانية تنظر إلي جيش مصر بعين الريبة والقلق ، لذا تعطلت النهضة التي كانت متصلة بالجيش في الصناعة والتعليم ، وبدأ يخيم علي مصر جوٌّ من الركود ، وإن دأبت الروح المصرية في توثبها بعد الذي رأته من قدرتها علي غزو الشعوب وغزو المملكة العثمانية نفسها .

وبعد ذلك جاء عهد سعيد ، وتخرج محمود سامي البارودي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجنّ في حناياه أسباب اليقظة والقلق ماذا يصنع هذا الفتى المتألق الذي يملؤه الشباب وتنفجر فيه ينابيع الفتوة والقوة فهل يستسلم إلي عيش الخمول والكسل؟ لم يطب له هذا العيش فإن كان قد حرم من لعب دور

(١) البارودي رائد الشعر الحديث ، صـ ٤٩ .

البطولة في الحياة العسكرية فليبحث وهو صاحب الهمة العالية عن مسرح للبطولة في مجال الأدب الذي أحبه وعشقه بل أهمَّة ما آل إليه حال الأدب في عصره فأنكب علي تراث الأجداد والعرب الذين هم أجداد لكل من نطق العربية وأفنى حياته في سبيل الدفاع عنها فوجد في هذا الشعر جمالاً وإبداعاً يأخذ باللب ويدفع اللسان إلي القول واليراع إلي الكتابة فالشعر القديم لم يقف عند وصف المعارك فحسب، بل تناول الحياة بأسرها جدِّها، وهزلها، حلوها ومرها، ففيه الغزل ، والوصف والحكمة وفلسفة الحياة والموت وكل ما يطمع الإنسان أن يجده فيه ، وبعد أن توفر البارودى علي مطالعة الشعر واستظهاره ، نجده يعمد إلي نفسه فيحكي عن آمالها وآلامها وهل هناك أصدق شعراً من شاعر يصور آلام نفسه وآمالها في ثوب عربي أصيل وهو دائماً طموح صاحب همة عالية حتى وإن كان قد فقد أباه وهو في السابعة إلا أنه كان فخوراً بآبائه وأجداده فهو سليل المماليك الطموح إلي المجد ، وإلي الفخر بماض مؤثل ، هو النسب الذى يسمو به علي أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به علي كل أهل عصره ومصره ، وهذه النزعة عند البارودي بدأت معه منذ صغره وهو دائم الفخر بنفسه وأنه لا ندله ولا نظير يصور ذلك في شعره فيقول :

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي ∴ طال الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته ∴ ويتقي بأسه الضرغامة العادي
مضى وخلفني في سن سابعة ∴ لا يرهب الخصم إبراقي وإرعادي
إذا تلفتُّ لم ألمح أخا ثقة ∴ يأوي إلي ولا يسعى لإنجادي
فإن أكن عشت فرداً بين آصرتي ∴ فها أنا اليوم فرد بين أندادي

والبارودي لم يكن بدعاً من الناس في جيله وفي غير جيله فقد سبق من الأمراء الشعراء الكثير، فامرؤ القيس كان أميراً وشاعراً،

والشريف الرضي وكان أبو فراس الحمداني أميراً وشاعراً ، وقد قرأ البارودي شعرهم جميعاً فاهتز لروعته وجماله وقال عن نفسه:

تكلمت كالماضيين قبلي بما جرت ∴ به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يتعمدني بالإساءة غافل ∴ فلابد لابن الأيك أن يترنما

والشعر طبع فيه وسليقة، يسجع به على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من بحوره وقوا فيه ميادين لمجد يعوضه مما فات سيفه في ميادين القتال .

وقد سافر إلي الآستانة عاصمة الدولة والتحق بوزارة الخارجية وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، وعكف علي أدابهما فاستظهر شعرهما وتغني بأوزانه ودعته طبيعة الشاعر إلي قرض الشعر بالتركية والفارسية كما نظمه من قبل بالعربية .

ثم عاد إلي مصر وعنده من العمر أربعة وعشرين عاماً لتبدأ صفحة جديدة من حياته ، فقد عقد إسماعيل باشا العزم علي أن يعيد مصر إلي سيرتها الأولي في عهد جده محمد علي باشا فيجب أن يكون لها جيش قوي وأعلام خفَّاقة ، ويجب أن تعود إلي نهضتها في العلم والصناعة ، بل يجب أن تتطلع إليها أنظار العالم كله إعجاباً بها وتقرياً إليها ويجل لذلك أن تنقل كلَّ ما في أوربا من أسباب الحضارة وأن تسير في ذلك بخطي جبارة تجعل هذا العاهل المصلح يرى بعينيه ثمرة سياسته ومجهوده ، ورُقي البارودي في رتبته العسكرية عندما جاء إلي مصر وعُيِّن علي قيادة فرقتين من الفرسان ، وابتسمت له الحياة وفتح له الأمل ذراعيه ، ثم أوفد إلي فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية ، ومن هناك سافروا إلي لندن فشهدوا من الأعمال العسكرية مازادهم بها علماً . ثم يرقى إلي رتبة قائمقام في فرسان الحرس ، ثم إلي رتبة أميرالاى ليتسلم قيادة الفليق الرابع من عسكر الحرس الخاص ، وبهذا تكون الآمال بدأت تتحقق والطموح

إلي المجد يؤتي ثماره ، ولكن هيهات أن تدوم السعادة ، فقد قامت الثورة في جزيرة كريت علي الدولة العثمانية بعد أربعة أشهر من تسلمه تلك القيادة وكانت سياسة إسماعيل ترمي إلي مجاملة الخليفة ومعاونته ليبلغ الغاية من أغراضه لذلك أرسل جنداً لمعاونة قواته علي قمع تلك الثورة وكان علي رأسهم البارودي الذى سعد بهذا التكليف أيما سعادة وأحسن البلاء في الحرب ، فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة وفي هذه الحرب أفاضت فربحته وأجادت بقصيدته التي مطلعها :

أخذ الكري بمعاقد الأجفان ∴ وهفا الشري بأعنّة الفرسان

((من يومئذ بدأت الأنظار تتطلع إلي البارودي الشاعر تطلع إعجاب وإكبار ، فلقد ترنم هذا الشاب بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه فالشعراء في عصره أصبح الشعر عندهم تجارة ومصدراً للإرتزاق فقد كان أحدهم وهو محمود صفوت الساعاتي لا يقول الشعر إلا ليمدح أمراء الحجاز أحياناً ، وولاة مصر وسادتها أحياناً أخرى يبتغي عطاءهم ويرجوا إحسانهم ، وكان ما يعرض في شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة أو فخر قولاً معاداً سبقهم إليه غيرهم في ديباجة أمتن ولفظ أكرم، وكانوا جميعاً متأثرين بشعر المتأخرين، فكانت المحسنات البديعية عندهم كل شئ ، وكانت معانيهم في جملتها مطروقة متداولة)) [1] .

وجاء البارودي فنفخ في الشعر العربي روحاً بعثته من جدثه الذي أنطوى عليه القرون الطوال ، وليمهد السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وغيرهم .

(١) ديوان البارودي ، ط١ ، ١٣ .

وأهم صفات شعر البارودي التي إسترعت الانتباه أنه اعتمد علي الألفاظ الجزلة والديباجة البدوية ، كما أنه تفوق علي أبناء عصره من الشعراء وأنه كان يعمد إلي تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة ، كما أنه لم يعمد إلي المحسنات البديعية من جناس وطباق وغيرها ، كما أنه لم يُغْرب في الخيال ولم يشط ولم يشطح في ذلك كله)) [1] .

والبارودي يعتمد في تصويره للواقع علي ما تدركه عينه غير جانح للخيال الذي يطغى علي الصورة فيذهب بجمالها ، فهو يعتمد علي نظره أكثر من اعتماده علي سواه ، لذلك وجدنا مُقِّدم الديوان يقول : ((وتصوير المنظور صفة بارزة في شعر البارودي كله ، وذلك شأنه بخاصة فيما لم ينزع فيه إلي تقليد المتقدمين ، بل لقد كان هذا التصوير الروائي للمنظورات يغالبه وهو يقلد وبائيته المشهورة التي قالها في صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضي التي يقول فيها : لغير العلا مني القلي والتجنب .

يعارضه بقصيدته التي مطلعها :-

سواي بتحنان الأغاريد يطرب ∴ وغيري باللذات يلهو ويلعب

فيها من هذا التصوير شئ غير قليل ومنها قوله :-

وفتيان لهو قد دعوت وللكرى ∴ خباء بأهداب الجفون مَطنّبَ
إلي مَربَع يجرى النسيم خلاله ∴ بنشر الخزامي والندي يتصبب
فلم يمضي أن جاءوا ملبين دعوتي ∴ سراعاً كما وافي علي الماء رَبْرَبَ

وكذلك نرى التصوير غير واقعي في غير تقليد في بائيته التي مطلعها :-

أين أيام لذتي وشبابي ∴ أتراها تعود بعد الذهاب

(١) راجع في ذلك مقدمة الديوان، صـ١٤ .

وهو في هذه القصيدة يصف مشهداً لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قوياً يجعله حياً ناطقاً ، كلُّه النشاط والحركة ولقد قال هذه القصيدة وهو في منفاه في سرنديب يأسف فيها لذهاب الشباب ويحنُّ إلي وطنه ، فإذا الوطن صورة ماثلة أمامه برسمها رسم مصوِّراً بارع إذ يقول :-

ليت شعري متي رأي روضة المذ ∴ بل ذات النخيل والأعناب
حيث تجري السفين مستبقات ∴ فوق نهر مثل اللجين والمذاب
قد أحاطت بشاطئيه قصور ∴ مشرقات يلحَنَ مثل القباب
ملعب تسرح النواظر منه ∴ بين أفنان جنةٍ وشعاب
ذاك مرعي أنسِي وملعَب لهوي ∴ وجنى صبوتي ، ومغني صحابي
ليس يرعى حقه الوارد ، ولا يذ ∴ كر عهداً إلا كريمَ النّصاب[1]

والبارودي في هذا التصوير والتجييد رائع مبدع يذكرنا بالمتنبي الذي إن وصف مثلاً الحرب نجد ألفاظه تؤدي ما رآه عيانه ويطلعك علي صورة الحرب وكأنك تشاهدها وترى ما يحدث فيها كما يقول :

" تكسرت النصال علي النصال "

وهكذا الحال عند البارودي الذي يصور ويصف ما تقع عليه عينه ويطلع القارئ عليه وكأنه يراه كما رآه هو في صورة بديعة.

يقول أحد الباحثين عن تصوير البارودي : (لا يروعنا البارودي في وصف أحاسيسه وما مرَّ به من أحداث الحياة وأحاط به من واقعها في بيئته وغير بيئته فحسب ، بل يروعنا أيضاً بملكته الخيالية التي أتاحت له تصوير المشاهد الكبيرة تصويراً ينبض بالحركة والحيوية الدافقة ، ولا نقصد المشاهد الحسية فقط ، بل

(١) الديوان ط١، صـ ٥٤ – ٥٥ ، شرح وتحقيق علي الحارم ، محمد شفيق معروف .

نقصد أيضا المشاهد النفسية ، إذ استطاع دائما أن يرسم ما يجري من حوله وفي نفسه رسماً تخطيطياً دقيقاً ولقد وصف مشاهد حسية كثيرة سواء في مجالس أنسه وخمره ، أو في وصفه للحروب وميادين القتال ، أو في وصفه لهرمي الجيزة الكبيرين وأبي الهول أو في وصفه للطبيعة والربيع والريف والقطن والطير ، أو في وصفه للأشخاص ، فهو في كل ذلك يعرض لوحات باهرة تخفق بالحياة والحركة ، إذ كان يعرف كيف يضم من لقطات المشاهد ما يلصق مناظرها بنفس سامعه إلصاقاً)[1]

ثم يواصل الباحث رأيه في تصوير البارودي لواقعة الحسي والنفسي فيقول : (والبارودي لا يتقن تصوير المشاهد الحسية وحدها ، بل يتقن أيضا تصوير المشاهد النفسية ولعل أكبر مشهد نفسي عاشه هو مشهد غربته في سرنديب وحنينه إلي وطنه وصحبه وأهله ، وقد نظم في هذا المشهد كثيراً من أشعاره وهي تفيض باللوعة والحسرة واللهفة ، وتتنوع تنوعاً واسعاً ، لما أثارته الغربة في نفسه من خواطر وأثار الحنين من معانٍ ، وكأنما تفجَّر في قلبه ينبوع لا يجف ولا يغيض .

والحنين إلى الوطن قديم في الشعر العربي نجده في مطالع القصائد مع وصف الأطلال ، وفي النسيب والغزل ، ولكن شاعراً قديماً لم يبلغ منه ما بلغه البارودي إذ ظلَّ يتجرع غصص الغربة المريرة سبعة عشر عاماً وكان شاعراً بارعاً في الوصف والتصوير ، فلجأ إلي فيثارته يصور حسرته وجزعه اللذين لا ينقضيان ، وهو تارة يُجَسِّمُ ذلك في غناءٍ بالوطن والديار ، وكأنه مجنون ليلي القديم يهتف بالرُّبَي والشعاب ، وتارة ثانية يجسمه في بكاء الشباب وأيامه

(١) البارودي رائد الشعر الحديث . د. شوقي ضيف ، صـ ١٨٨ ، دار المعارف .

البهيجة ، وتارة ثالثة يجسمه في بكاء المحبوبة التي انقطعت بينه وبينها الأسباب وتارة رابعة يجسمه في وصف الوحشة والغربة والوحدة ، وتارة خامسة يجسمه في حنينه إلي فلذات كبده وتارة سادسة يجسمه في رثائه لأصدقائه وزوجته بلبل حديقته ، وكأنما غربته عن وطنه جحيماً لا يطاق عذابه ، فهو يصل الأنين بالأنين يبثُّ لواعجه التي يتلظى بها قلبه ، وما من شك في أن البارودي يرعنا بهذا التنويع الواسع في تصوير حنينه إلي وطنه ، وهو تصوير يحفل بما يملأ النفس إعجاباً ، وإنه ليرفعه إلي الذروة من شعراء العربية في القديم والحديث[1] .

وعندما بلغ البارودي سن الأربعين عُيِّن مديراً للشرقية (محافظا) ثم وزيراً للأوقاف ، ثم وزيراً للحربية ، ثم انضم إلي الحركة القومية المتمثلة في الحركة العرابية ، وعندما أخفقت الحركة يحاكم زعماؤها ، وينفون ومعهم البارودي إلي جزيرة سيلان لأكثر من سبعة عشر عاماً ، وفي عام ١٩٠٠م يصدر عباس حلمي – والي البلاد – أمراً بالعفو عن البارودي ، فيعود علي ظهر سفينة إلي مصر .

ويظل البارودي في مصر سنوات قليلة لا تعد علي أصابع اليد الواحدة حتى تفيض روحه إلي بارئها ، لكنه يموت سعيداً لأنه مات علي أرض مصر ، ويموت سعيداً لأنه أدى دوره الوطني كما ينبغي للفارس النبيل ، ويموت سعيداً لأنه فتح باباً لأجيال شعرية جديدة وكثيرة ستأتي بعده عارفه فضله ومقدرة دوره التأسيسي الإحيائي الذي هو في الأساس دور تحديثى بالدرجة الأولي ، فالبارودي هو الذي فتح الباب وأشار للطريق .

(١) البارودي رائد الشعر الحديث . د. شوقي ضيف ، صـ ١٩٠ – ١٩٩ ، دار المعارف .

أغراضه الشعرية

والشاعر محمود سامي البارودي قد حدد رسالته الأدبية وجعل للشعر رسالة وماهية ، أما عن رسالة الشعر عنده فهي الرجوع بالشعر إلي أزهى عصوره الأولي في عصر بني العباس ، والبارودي شاعر متمكن ، درس التراث الأدبي دراسة الناقد البصير ورأي فيه مهوى فؤاده ومثار إعجابه ، فأيقن أن احتذاءه مدّ" متصل لتيار يجب أن يفيض ويزخر ، ما بقيت العربية تتردد علي الأفواه ، ولا يعني بالاحتذاء محاكاة شكلية تنقل عن الأصل دون إحساس صادق ، بل يعني تسطير عواطفه في نهج عربي أصيل ، لأن الشعر في رأيه ميدان يتسابق فيه فرسان البيان ، ولكل فارس حلبته الفسيحة وجواده السابق يوم الرهان .

وأما عن ماهية الشعر عند البارودي فقد حدد ماهيته من خلال تقديمه لديوانه إذ يقول : ((وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يأتلق وميضها في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلي صحيفة القلب ، فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسَلَة اللسان فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بدليلها السالك ، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن أتاه الله منه خطأ ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس وصار بين قومه كالغرة في الجواد الأدهم ، والبدر في الظلام الأيهم ، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلي مكارم الأخلاق ، لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لذي رغبة مسرح ، وارتبأ الصهوة التي ليس دونها لذى همة مطمع ومن عجائبه تنافس الناس فيه ،

وتغاير الطباع عليه ، وصغو الأسماع إليه ، كأنما هو مخلوق من كل نفس، أو مطبوع في كل قلب، فإنك ترى الأمم علي اختلاف ألسنتهم، وتباين أخلاقهم وتعدد مشاربهم ، لهجين به ، عاكفين عليه ، لا يخلو منه جيل دون جيل ، ولا يختص به قبيل دون قبيل ، وللشعر رتبةٌ لا يجهلها إلاَّ مَنْ جفا طبعه ، ونبا عن قبول الحكمة سمعه فهو حلية يزدان بجمالها العاطل ، وعوَذَة" لا يتطرق إليها الباطل ، ولقد كنت في ربعان الفتوة ، واندفاع القريحة بتيار القوة ، ألهج به لهج الحمام يهديله ، وآنس به أُنْسَ العد بل بعديله ، لا تذرعاً إلي وجه أنتويه ، ولا تطلعاً إلي غنم أحتوبه ، وإنما هي أغراض حركتني ، وإباء جمح بي، وغرام سال علي قلبي فلم أتمالك أن أَهَبْتُ، فحرَّكتُ به جرسي، أوهتفتُ فسرَّيتُ به عن نفسي كما قلتُ :-

تكلمت كالماضيين قبلي بما جرت ∴ به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدني بالإساءة غافل ∴ فلابد لابن الأيك أن يترنما[1]

ثم يتحدث عن قرض الشعر وأنه فيه صاحب رسالة من خلالها يعبر عن ذاته وشخصيته فلا يقول إلا ما يحس به لذلك جاء شعره صورة صادقة لنفسه وأفكاره وتجاريبه إذ يقول :-

(ولا بدع فللإنسان فتون بشعره ، وولع ببنات فكره ، ولولا ذلك ما دون الناس أشعارهم ، ولا اتخذوا حلية الأدب شعارهم ، كيف لا؟ وبقاء الذُّكرة حياة الأبد، وحب الخلود اطمع لقمان في لُبَدْ [2] وإني وإن لم أكن من فرسان هذه الغرة ، ولا من رماة الحَدَق في مثل هذه الغارةِ ، فالتخلق بأخلاق الكرام محمدة والتعلق بأذيال الخمول مفسدة ولله دَرُّ من قال :

(١) مقدمة ديوان البارودي، ط١، صـ ٩٠٨ .
(٢) لبد آخر نسور لقمان ظن أن لبد أي أحام وخلد فلا يموت .

عليّ السعي في طلب المعالي ∴ وليس عليّ إدراك المرام[1]

وبعد أن بين البارودي رسالة الشعر وماهيته وآمن بهذه الرسالة وعمل لهذه الماهية لذلك جاء شعره صورة دقيقة وصادقة لنفسه يكشف عن أسرارها ، لأن الشعر يهذب النفوس ويصقلها ، وكذلك الشعر يبث في النفس الحكمة وحقائق الحياة التي لا تقيد بوقت ولا مكان فهو يؤثر في النفوس تأثيراً بالغاً علي اختلاف العصور والأجناس لأن الشعر لا يخاطب أحداً بعينه لأنه يخاطب الروح لأنه حديث الروح وحديث الروح دائما تشنف له الآذان وتطرب له النفوس علي حدِّ قول الشاعر :

حديث الروح للأرواح يَسْري ∴ وتسمعه القلوب بلا عناء

فهو يفصح عن النفس والشاعر يعبر عن نفسه وعن الناس جميعاً أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم وأحلامهم وآمالهم وآلامهم ، والبارودي نظم شعره في الأغراض الموروثة من فخر ووصف للطبيعة ، والغزل ، والشكوى سواء كانت شكوى هجر الحبيب ، أو شكوى الحوادث وخصوصاً بعد المنفى ، وكذلك الرثاء في شتى صورة وهو في هذا وذاك صادق كل الصدق في تجاربه التي تصور نفسه وواقعة أدق وأصدق تصوير وكذلك مدح وقال في الخمر ومجالسها ، وكذلك في الزهد.

الفخر في شعر البارودي :

البارودي بحكم أصله الذي ينتهي إلي المماليك كان كثير الفخر والاعتزاز بهذا النسب وكذلك كان يفخر بشعره وأدبه ، كما كان يفخر ببطولاته .

---

(١) لبد آخر نسور لقمان ظن أن لبد أي أحام وخلد فلا يموت صـ١٠، ورادع في ذلك – الأدب العربي في العصر الحديث بين التقليد والتجديد، د. صابر عبدالدايم صـ٢٦– ٢٧ .

فنفس البارودي كما يقول عنها أحد الباحثين :- لقد مضى البارودي يناضل بكل ما يستطيع ، وكأنه كان فوق كل جبروت أو كأنما كان يحمل من قوة النفس ما تنوء به العصبة أولوا القوة ، وفي أشد الساعات ضيقا وبرماً كانت تضئ له هذه النفس جوانب المستقبل ، مُنَحِّيَةً عنه كل يأس باعثة فيه كل مضاءٍ وعزم ، وحقاً إنها نفس كبيرة نفس ترتفع فوق الأحداث ، وفوق كل القوى التي تتآزر علي حربها ، بل هي نفس ثائرة ، خُلِقَتْ لتثور في سبيل كرامتها وكرامة أمتها[1] ومن شعر الفخر الذي بلغ فيه الغاية التي لا تطالها غاية في الفخر إذ يقول :

وإني امرؤٌ لولا العوائق أذْعَنَتْ ∴ لسلطانه البدو المغيرة والحَضَرُ
من النّفر الغرِّ الذين سيوفهم ∴ لها في حواشي كل داجية فجرُ
إذا استلّ سيّدٌ غرب سيفه ∴ تفزعت الأفلاكُ والتفتْ الدّهر
لهم عمدٌ مرفوعة ومعاقل ∴ وألوية حُمرٌ وأفنية خُضرُ
ونارٌ لها في كل شرق ومغربٍ ∴ لمدرع الظلماء ألسنة حُمرُ
تمدّ يداً نحو السماء خضيبةً ∴ تصافحها الشّعري ويلثمها الغَفرُ
وخيل يعُمّ الخافقين صهيلها ∴ نزائع معقودٌ بأعرافها النصرُ
معوّدة قطعَ الفيافي كأنها ∴ خدارية فتخاءُ ليس لها وكرُ

وله قصيدة أخرى والتي مطلعها :

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ∴ ولكنه قد يخذل المرء جَهْدَهُ
وما أبتْ بالحرمان إلا لأنني ∴ أود من الأيام ما لا تودّه
فإن يكَ فارقتْ الرّضا فلبَعدَما ∴ صحبت زمانا يَغضِبُ الحُرّ عبْده
وإنّي امرؤٌ لا أستكينُ لصولةٍ ∴ وإن شد ساقي دون مساعي قدّه
أبَتْ لِيَ حَملَ الضَيم نفسٌ أبيّةٌ ∴ وقلبٌ إذا سيم الأذى شَبّ وقْدَه
نماني إلي العلياء فَرعٌ تأثّلتْ ∴ أرومته في المجد واقتّر سَعْدُه
أصدُّ عن المرمي القريب ترفعا ∴ وأطلب أمراً يُعْجِز الطيرَ بُعْدُه[2]

(١) البارودي رائد الشعر الحديث، د. شوقي ضيف صـ١٠٤ .
(٢) الديوان جـ١، صـ١٤٥: ١٤٦ .

وإذا كان البارودي كثير الاعتداد بأصله ونسبه وما انطوت عليه نفسه من هِّمة عالية وبأس شديد وعزم لا يلين فإن فخره بشعره وفنه وإبداعه لا يقل عن افتخاره بهذا الأصل ، وهو في هذا يذكرنا بأستاذه الذي تتلمذ علي شعره وهو أبو الطيب المتنبي الذي قال عن شعره مفتخراً إذ يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ∴ ويسهر الخلق جراها ويختصم

يقول البارودي مفتخراً بشعره قصيدته التي مطلعها :

تولي الصّبا عني فكيف أعيده ∴ وقد سارَ في وادي الفناء بريده (١)

إذ يقول:

وإني وإن أصبحت فرداً فإنني ∴ بنفسي عَشير" ليس ينجو طريده
ولي من بديع الشعر ما لو تلوته ∴ علي جبل لا نهال في الدّوّ رِيدَهَ (٢)
إذا اشتد أورى زَنده الحربِ لفظَهُ ∴ وإن رَقّ أزري بالعقود فريدَه
يُقَطِّعُ أنفاس الرياح إذا سرى ∴ ويسبق شَأوَ النّيّرين قَصيدَهُ
إذا ما تلاه مُنشِد" في مَقامَةٍ ∴ كفى القَومَ ترجيعَ الغِناءِ نَشيدَه
سيبقي به ذكر علي الدهر خالداً ∴ وذكر الفتي بعد الممات خُلودَهُ(٣)

وإذا كان البارودي فخور تياه ومن عادة الفخور ألا يشكو أو يشتكي إلا أن للحب علي القلوب والنفوس معاً سلطان لا يُقْهَرْ بل يقهر كلَّ من تملك قلبه هذا السلطان بل يصل به إلي حد البكاء وحلُّ معا قد الأجْفان وفتح مغاليق الدموع يصرح بذلك البارودي إذ يقول:

لا غرو إن أصبحتَ تحت قيادِة ∴ فالحبُّ أغلب للنفوس وأقهرُ
يعنو لقدرته المليم المُتّبِقي ∴ ويهاب صولته الكميُّ القَسَوَرُ
والعشق مكرمة إذا عَفّ الفتي ∴ عمّا يهيم به الغَوِيُّ الأصَوَرُ
يقوي به قلب الجبان ويرعوي ∴ طمع الحريص ويَخضَعُ المتكبرُ(٤)

---

(١) نفسه جـ١ صـ١٧٦ .
(٢) الدو: الصحراء الواسعة – ريده: الريد هو الحرف الناتئ من الجبل .
(٣) ديوان جـ١، صـ١٨٤، ١٨٥ .
(٤) الديوان صـ١ ، صـ ٧٠-٧١ .

الغزل

والحبُّ قدر الله علي العبد ولا حيلة للإنسان في دفعه عن نفسه فعلام يلوم العاذل ، والحب يُبَرِّح بصاحبه وبضنيه ويؤلمه وكارثة الكوارث أن يبتلي العاشق بصاحب قلب قاس لا يعرف للحب طريقاً فيلوم ولا يعذر ، لأنه لا يعرف الشَوق إلا من كايده ولا يعرف الوصل إلا من اتصل ولا يعرف الحبُّ إلا من عاشه ، والحب يصيب النفس بالذل والإنكسار والهوان في سبيل من أحب ، فالحياة الحب والحب الحياة يصور البارودي ذلك فيقول :

لهوى الكواعبِ ذمّة" لا تخفرَ ∴ وأخو الوفاء بعهده لا يغدر
فعلام ينهاني العذول عن الصبّا ∴ أو ليس أنّ هوى النفوس مقدّر
قد كان لي في بعض ما صنع الهوى ∴ عذر" ، ولكن أين من يتبصرُ ؟
ومن البليّة غافل عمّا جَنَتْ ∴ يَدَهُ عليّ ، ولائم" لا يَعذِرُ
لم يَدرِ منْ كَحَلَ الكرى أجفانه ∴ ماذا يكابد في الهوى من يسهر
ما كنتُ أعلمَ قبلَ حُبّك أنني ∴ أغضي على مضض الهوان وأصبر
أوردتني بلحاظ عينك مورداً ∴ للحبّ ، ما للقلب عنه مصدرُ
هي نظرة كانت ذريعة صبوةٍ ∴ واللحظ أضعف ما يكون وأقدرُ
ما كنتُ أعلم قبل وحي جفونها ∴ أن العيون الجؤزية تسحرُ
ظلموا الأسنّة خاطئين ، وليتهم ∴ علموا بما صنع السِّنان الأحور
أين الرماح من القدود ؟ وأين منَ ∴ لَحظٍ تهيمَ به السنان الأخرز ؟
هيهات يَثبُتُ في الوقيعة دارع" ∴ يسطو عليه مخلخل ومُسَوَّرُ[1]
للحسن أسلحة إذا ما استجمعَتْ ∴ في حومةٍ لا يتّقيها مِغفرُ[2]
فاللحظُ عَضْب" صارم ، والهدبُ نبـ ∴ ـل" صائب" ، والقدُّ رمح أسمرُ[3]

(١) المخلخل والمسور لابس الخلخال ، ولابس السوار والخلخال معدن يلبس في السامر ، والسوار ما يلبس في اليد .
(٢) مغفر هو زرد نسيج علي قدر الرأس يلبسه المحارب تحت القلنسوة.
(٣) الديوان طـ٢ ، صـ٦٧ – ٦٨ .

والحب إذا اصطحبه الهجر أو فراق الأحبة أَهمَّ القلب وأحزنه حتى أنه لم يعد هناك صبر علي فراق الأحبة عندها لم يجد المحب غير البكاء والشكوى لما ألمّ به من حزنٍ وهمٍّ ، عندما يطلب الشفاء وشفاؤه يكمن في نظرة إلي من أحب، إلاّ أن البارودي وجد أن النظر إلي الحبيب للاستشفاء لا يزيده إلا شوقاً وغراماً قد يصل به إلي درجة الهلاك ، وهذه النظرة هي سبب هلاكه فهي التي أوقعته في شرك الحب يصور البارودي ذلك في تصوير بارع إذ يقول :

غلب الوجدُ عليه فبكي ∴ وتولى الصبرُ عنه فشكا
وتمني نظرةً يَشفِي بِهَا ∴ علّةَ الشوق فكانت مَهلَكا
يا لها من نظرة ما قاربتْ ∴ مهبط الحكمة حتى انتهكا
نظرة ضم عليها هدبه ∴ ثمّ أغراها فكانت شركا
غرست في القلب مني حبّه ∴ وسقته أدمعي حتى زكا
آه من برح الهوى إن له ∴ بين جنبيّ من النار زكا
كان أبقى الوجدُ مني رمقاً ∴ فاحتوى البين علي ما تركا[1]

الوصف

وإذا كان البارودي تفوق علي نفسه في الغزل مما سنبينه ونبسط القول فيه فيما بعد عند الحديث عن المرأة ، إلا أننا نراه أكثر تفوقا في الوصف حيث أنه كان يدرك أخص خصائص الشئ الذي يصفه سواء" أكان هذا الموصوف الطبيعة أو البحر أو الأهرام أو وصف أشخاص بأعينهم ومن وصفه للطبيعة وصفة لطبيعة المكان الذي كان يحيا فيه في منفاه فيصف أرضها وجوها وشمسها وطيورها إذ يقول :-

دعاني إلي غيِّ الصِبا بعد ما مضى ∴ مكان كفردوس الجنان أنيق
كسا أرضَه ثوبَ مِنَ الظّلِ باسق" ∴ مِنَ الأيكِ فينانَ السراة وريق
سمتْ صَعَداً أفنانه فكأنما ∴ لها عند إحدى النيرات عشيق[2]

(١) الديوان طـ٢ ، صـ ٣٦٤ – ٣٦٥ –٣٦٦ –٣٦٧ .
(٢) الديوان طـ٢ ، صـ ٣٢٨ .

وعندما يصف ريف مصر ، وما أدرك ما ريف مصر ، حيث الهواء العليل ، والماء العذب السلسبيل، والخضرة التي نَمتْ وترعرت بما النيل ، وهذا بالنسبة لريف مصر، أمّا ريف الدقهلية التي كان يسكنها البارودي حيث أن ضيعته كانت في قرية " قرقيرة " إحدى القرى التابعة لمركز السنبلاوين الحالية التابعة لمحافظة الدقهلية التي يطلق عليها عروس النيل فإن لريفها سحر خاص، فجوها وريفها خصب مُمرع النماء والخضرة، تتخلله القنوات والجداول ، تكسوه حلة"خضراء مزدانة بكثير من المناظر الطبيعية الخلابة ، ويضاعف من جمال هذه البيئة جو معتدل علي امتداد شهور العام ونادراً ما تعكر صفوه الغيوم والأنواء نراه يصف ضيعته الكائنة في هذه المنطقة فيقول:

ولقد وصلت إلي جناب أفيح ∴ زاهي النبات بعيد أعماق الثري
تستن فيه العين بين منابت ∴ طابت مغارسها وجنات رَوَا [1]
مُلتفت أفنان الحدائق لو سَرَتْ ∴ فيها السّموم لشابهت ريح الصّبا
فترابه نفس العبير ونبته ∴ سَرَقٌ الحرير وماؤه فلق الضحى
فإذا شممت ووجدت أطيب نفحةٍ ∴ وإذا التفت رأيت أحسن ما يُرَي [2]

الحنين

ومن أهم أغراضه الشعرية "الحنين إلي الوطن" الذي ملك عليه لبَّه علي مدى سبعة عشر عاماً وهو في منفاه ، والحنين إلي الوطن غرض شعري قديم قدم الشعر العربي، وهو في حنينه إلي الوطن شاكٍ ضارع قد ملأ عليه الحزن قلبه وكيانه وأضاع صحته ويرى جسده ، فإن كان حبُّه قد أصابه بالعلل ، فإن غربته عن الوطن قد أتَتْ علي ما بقي منها يصور ذلك فيقول :

(١) روا: مقصور رواء والمقصود بها المروى بالماء.
(٢) الديوان ط١ ، صـ ٣٥ .

هل من طبيب لداء الحب أوراقي؟ ∴ يشفي عليلاً أخا حزنٍ وإيراق
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقاً ∴ حتى جرى البين فاستولى علي الباقي
حزن براني وأشوق رعتْ كبدي ∴ يا ويح نفسي من حزنٍ وأشواق
أكلف النفس صبراً وهي جازعة" ∴ والصبر في الحب أعيا كلّ مشتاق
لا في "سرنديب" لي خل ألوذ به ∴ ولا أنيس سوى همي وإطراقي
وكيف أنسى ديارآ قد تركت بها ∴ أهلاً كراماً لهم ودّي وإشفاقي
إذا تذكرت أياماً بهم سلفت ∴ تحدّرت بغروب الدمع آماقي
فيا بريد الصّبا بلغ ذوي رحمي ∴ أني مقيم علي عهدي وميثاقي[1]

ومن حنينه إلي الوطن من قصيدة مطولة قوله :

هجرت لذيذ العيش بعد فراقهم ∴ وودعتْ ريعان الشباب الغرانق
فهل تسمح الأيام لي بلقائهم ∴ ويسعد في الدنيا مشوق بشائق ؟
لعمري لقد طال النّوى وتقطعت ∴ وسائل كانت قبل شتى المواثق
فإن تكن الأيام ساءت صروفها ∴ فإني بفضل الله أول واثق
فقد يستقيم الأمر بعد أعوجاجه ∴ ويرجع للأوطان كل مفارق[2]

الخمر

والبارودي متأثر بقدامى الشعراء ليس في شعرهم وطريقه نظمه فحسب ، بل متأثر أيضاً بأغراضهم ومعانيهم فنراه يتغنى للخمر وبالخمر علي طريقه أبي نواس وأضرابه من أصحاب اللهو والمجون ، فهي عنده مبعث الحيوية ، وكأنه يريد أن يوجه المتلقي إلي حبِّ الخمر ومجالس أنسها ، ولقد ساعده علي ذلك ما كان يحيا فيه من ثراء هيأ له أن يعاقر بنت الحان ، أو قد يكون ما مرَّ به من ظروف وتقلبات حياتية أو مزاجية فكلاهما يلجئ صاحبه إلي معاقرتها، والديوان ملئ بالحديث عنها وذلك إمَّا أن يكون في مقطوعات خاصة بوصفها أو وصف مجالسها أو قد تكون في ثنايا قصائده ، وهو يتحدث عنها حديث العاشق لها ، الناصح لكل بني

(١) الديوان ط٢ ، صـ ٣٢٣ – ٢٣٤ .
(٢) الديوان ط٢ ، صـ ٣٢٣٦١ – ٣٦٢ .

البشر ألا يفوتهم ما تحدثه في النفوس من نشوة وانتشاء مصحوب وصفها ووصف مجالسها بالحديث عن جمال المرأة وجمال حديثها وسحرها وقد يأتي مصحوباً بالحديث عن جمال الطبيعة المصرية بخضرتها وأجوائها ومياهها مما يضفي علي الصورة عنده جمالاً لا يضاف جمالها ، وهو في كل ذلك رسَّام بالكلمات ماهر بارع ، فهي منذ القدم قد سجدت لها ملوك العرب والعجم ، وفعلها السحر كما تفعل الألحاظ وعيون المها بقلوب المحبيين ، وهو ناصح لكل البشر بشر بها وقت الصباح بقوله :-

غادِ النّدى بالجيزةِ الفيحاء ∴ واحدُ الصّبُوحَ بنغمةِ الورقاءِ
والمح بطرفك ما وحته يَدَ الصَّبا ∴ فوق الغديرِ تجدْ حروف هجاءِ
من كل حرف فيه معني صبوةٍ ∴ تتلو به الورقاء لحنَ غناءِ
ميدان سبقٍ للخلاعة أشرقتْ ∴ فيه الكَمِيتْ بغرّةٍ غرّاءِ
حمراء دار بها الحبَابَ كأنها ∴ شفقٌ" بَدَتْ فيه نجومَ سماءِ
هي كالأشعة غير أن ضِياءَها ∴ من ذاتها لا من ثقوبِ ضِياءِ
وإذا رجَعتْ إلي اليقين فإنها ∴ نارٌ" تخلّلَ جسمها في ماءِ
تجري فتفعل بالعقول كئوسُها ∴ ما تفعل الألحاظ بالأحشاءِ
خفيتْ علي الأحقاب فهي ذَخيرةٌ" ∴ من عهد آدم أودِعتْ بوعاءِ
هي جمرة الفرس التي سجدت لها ∴ أملاكُها في سالف الأنداءِ
فانهض إلي شرب الصبوح فقدْ يدا ∴ شَيبَ الصباح بِلمّةِ الظلماءِ[1]

والبارودي يسير علي درب أستاذه أبى نواس في وصفه لرحلة خمرية قام به هو ولداته وأصدقاؤه فنراه في قصيدته والتي مطلعها:

سوى بتحنان الأغاريد يطرب ∴ وغيري باللذات يلهو ويلعب

يقول :

وفتيان لهو قد دعوت وللكرى ∴ خباء بأهداب الجفون مطنّبُ
إلي مربع يجري النسيم خلاله ∴ بنشر الخزامي والندى يتصبب
فلم يمض أن جاؤا ملبين دعوتي ∴ سراعاً كما وافي علي الماء ربرب
وقلنا لساقينا أدرها فإنما ∴ قصارى بني الأيام أن يتشعبوا

(١) الديوان حـ١ ، صـ ١٨ – ١٩ – ٢٠ .

فقام إلي رقود خمر كأنه ∴ إذا استقبلته العين أسود مغضب
يمجّ سلافاً في إناء كأنه ∴ إذا ما استقبلته الأنامل كوكب
فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقيا ∴ ويا طيب هذا اليوم لو دام طيب[1]

الزهد

وإذا كان البارودي في خمرياته قد بلغ حدَّ النضج الفني إلا أننا نجده بعد ذلك يعرِّج علي الزهد وذم الدنيا بما فيها من آلام وأوصاب ، وأنها لا تبقي علي أحد ، أليس هو القائل :-

تربي الفتي حتى إذا تم أمره ∴ دهته كما ربّ البهيمة جازر

وقد بلغ الزهد عنده حدَّه عندما بلغ الستين لذلك نجده يقرر استواء الأفراح والأحزان عنده لأن الدنيا أقل من أن يحملها إنسان في قلبه لذلك يجب أن نزهد فيها يبين ذلك فيقول :-

أبعد ستين لي حاج فأطلبها ∴ هيهات ما لامرئ بعد الصِّبا حاج
إن ابن آدم في الدنيا علي خطر ∴ لا يستقيم له قصد ومنهاج
كأنما هو في فُلْكٍ تحيط به ∴ من جانبيه أعاصير وأمواج
يهوى البقاء ومكروه الفناء به ∴ ويستعز بأمنٍ فيه إزعاج
لا أحفل الطير إن غنّتْ وأن نعبت ∴ سيان عندي صفّار وشحّاج
يستعظمون من الحجاج صولته ∴ وكل قوم بهم للظلم حجاج[2]

وهو لا يرى من النعيم شيئاً بعد أن بلغ الستين وأصبح لا يري إلا العمل الصالح الذي يقدمه بين يدىْ الله لأن الموت آت فكل إمرئ يلقي حِمَامه يستوي في ذلك الفقير المعدم والغني الموسر علي حدَّ قول الشاعر :-

يموت راعي الضأن في سربهِ ∴ موته جالنيوس في طبه

يصور بعد ذلك البارودي فيقول :

كأني وقد جاوزت ستين حجّة ∴ مسحت بها عن ناظري سَنة الفهد

(١) الديوان ط ، صـ ٣٨-٤٤ .
(٢) الديوان ط ، صـ ١٠٥ .

فسحقا لدار لا يدوم نعيمها ∴ وتبآ لخل لا يدوم على العهد
وكيف يلذّ المرء بالعيش بعدما ∴ رأى أن سَمّ الموت في ذلك الشهد
إذا لم يكن بين الحياة وضدّها ∴ سوى مهلة فاللحد أشبه بالمهد
وكل امرئ في الناس لاقٍ حمامه ∴ فسيان ربّ العير الفرس النّهدِ[1]

الحكمة

ومن الأغراض التي إكتظ بها ديوانه بل لا تكاد تخلو قصيدة منه " الحكمة " فالبارودي بحق شاعر الحكماء أو حكيم الشعراء والحكمة غرض قديم قدم الشعر العربي وهذا الغرض يُعَدُّ نتاج خبرة وطول مراس إن دل هذا علي شئ فأنما يدل علي أن البارودي ابن بيئته خالط وتعامل معهم فما كان منه من كثرة هذه المخالطة والمعاشرة إلا أن أنتجت لنا قريحته هذه الحِكَمْ التي صيغت في ثوب أدبي رائق وراق وكأن حكمه عندما تطرق أذن المتلقي حقائق لا تقبل المناقشة ، فهو ينصح الشباب باغتنام زمن القوةِ والفتوة فيطلب من الشباب باغتنام زمن القوةِ والفتوة فيطلب من الشباب تقديم صالح الأعمال في زمن الفِتاء ، قبل أن يحلَّ المشيب فيحل معه الضعف والفتور إذ يقول :-

بادر الفرصة واحذر فوتها ∴ فبلوغ العِزّ في نيل الفرص
واغتنم عَمرك إبّان الصِّبا ∴ فهو إن زاد مع الشيب نقص
ميز الأشياء تعرف قدرها ∴ ليستِ الغُرّة مِنْ جنس البرص
واجتنب كلّ غبي مائق ∴ فهو كالعَيرِ إذا جَدّ قَمَص
إنما الجاهلُ في العين قذي ∴ حيثما كان وفي الصدر غَصَص
واختبر من شِئْتَ تعرفه فما ∴ يعرف الأخلاق إلا من فَحَص[2]

ومن عظيم حكمه ما قاله :

من صاحب العجز لم يظفر بما طلبا ∴ فاركبَ من العَزْم طِرفاً يسبق السّهَبا
لا يدرك المجدَ إلاّ منْ إذا اهتفتْ ∴ به الحميّةُ هزّ الرمح وانتصبا

(١) الديوان ط ، صـ ٢٣٨ .
(٢) الديوان حـ١ ، صـ ١٧١ :١٧٣ .

فاحمل بنفسك تبلغ ما أردتّ بها ∴ فالليثُ لا يرهب الأخطار إن وثبا
وجُدْ بما ملكتْ كفّاكَ مِنْ نَشَبٍ ∴ فالجود كالبأسِ يَحمِى العِرضَ والنسّبا
لا يقعُدُ البطلُ الصَنديدُ عَنْ كرمٍ ∴ مَنْ جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا[1]

ومن عظيم حكمه دعوته إلي الرفق والترفق في كل شئ :

تَرفّقْ فإنّ الرِّفْقَ زَيْن" ، وقلما ∴ ينالُ الفتي بالعُنْفِ ما كان طالبا
إذا لم يكن للمرءِ عقل" يرده ∴ إلي الحِلمِ ، لم يبرح مدى الدهر عاتبا
وإن هو لم يصفح عن الخِلّ إن هفا ∴ أقام وحيداً أو قضى العمر غاضبا[2]

ومن حكمه في كتمان السر وفضيلته قوله :

ألم تَعلَمْ وخيرُ القولِ أبقى ∴ بأنّ الصمتَ منجاة الأريب
فلا تأمنْ علي سِرٍّ حبيباً ∴ فقد يأتي العدو من الحبيب[3]

ومن حكمه ما قال في معاشرة الأحمق :

لا تعاشر ما عشت أحمق واعلم ∴ أنه في الوجود حيٌّ كَمَيّتِ
ليس بين الجنون والحمق إلا ∴ مثل ما بين أدهمٍ وكُمَيتِ[4]

وقال أيضاً في معاملة الصديق واختياره :

وعاشر من الخلان من كان سالماً ∴ فليس سواء سالم ومريض
فقدْ لا يفيد القول نُصحاً وحكمةً ∴ إذا حال من دون القريض جريض[5]

ومما قاله أيضاً في هذا الشأن :-

تحبب إلي الإخوان بالحلم تغتنم ∴ مودتهم فالحِلمِ للشر يَرحَضُ
فإن قرين السوء ما لم تجازه ∴ فأفعاله وافاك بالعذر يركض[6]

(١) الديوان حـ، صـ ٦٧ : ٦٩ .
(٢) الديوان حـ، صـ ٧٧ .
(٣) الديوان حـ، صـ ٧٨ .
(٤) الديوان حـ، صـ ٩٥ .
(٥) الجريض: هو ما ينص به الإنسان – ديوان حـ٢، صـ١٨٣ .
(٦) الديوان حـ٢ ، صـ ١٨٤ .

الهجاء

ومن الأغراض الشعرية التي تناولها البارودي في شعره الهجاء وهو في هجائه لاذع يهجو بالمثالب التي يجب التخلي عنها والتي يرى أنها منافية لما يوجب الفخر لذلك كثر فخره واعتزازه وتبعا لذلك كثر هجاؤه قوله :-

هجوتــه لا بالغــاً لؤمــه ∴ لكننــي كفكفــت مــن غربــه
فان أكــن نلــتُ مــن عرضِــه ∴ فأننــي دنســتُ شعــري بــه
فلا يلــومَــنّ ســوى نفســه ∴ مــن سلــط النــاس علــي ثلبــه[1]

ومن هجائه أيضا قوله في شخص يصفه بأنه وغْد" لا يأبهُ به لفساد وعرضه ، ولا يهتم بضياع حسبه :

وغْد" تكوّن من لــؤمٍ ومــن دنــسٍ ∴ فمــا يغــار عــلي عــرضٍ ولا حَسَــبِ
يلَتَذّ بالطعن فيــه والهجــاء كما ∴ يَلتَــذُّ بالحَــكّ والتظفيــر ذو الجَــرَبِ

وقال يهجو شخصا لم يجد فيه فضيلة قط بل أنه من كثرة مــا اشتمل عليه من مثالب ورزائل كأنه خلف سور من الدناءة والحقارة والخسة يقيه الطعن والهجاء من أن يؤثرا فيه إذ يقول :

كيــف أهجــوك والــدّناءَةُ ســور" ∴ مِنَ حديد يقيــك طعنــي وضربــي
لك عرض" أرقّ نسجاً من الريــ ∴ ــح ، وأوهَي مِنَ طَيلسان ابــنِ حــربِ[2]

وقال يهجو آخر :

وذِي خِــلالٍ كــأنّ اللهَ صوّرَهــا ∴ مــن صِبغَــةِ اللؤمِ أومــن حَمَــأةِ الريَــبِ
نال العــلاءَ ولكــن خــاب رائــده ∴ عن نجعــةِ الفضــل والآداب والحســبِ
هجوته رغبةً في الصدق إذ نفرت ∴ شمائلي عن مقــال المــدح في الكــذبِ[3]

---

(١) الديوان ط ، صـــ ٨٢ .
(٢) طيلسان ابن حرب محمد بن حرب قد أهــدى غلــي الحمــدوني طيلساناً خَلِقاً لا ينتفع به الديوان حـــ١ ، صـــ ٨٣ .
(٣) الديوان حـــ١ ، صـــ ٨٣ : ٨٤ .

وقال يهجو آخر :

عَـــدِمْـتَ حَمِيّـــةً وسقمـــت ودّاً ∴ فلـــم تـــدرك لمكرمـــــة نصيبـــــا
فمـــا أحزنـــتَ في حربٍ عـــــدوّاً ∴ ولا أفرحـــتَ في سلـــــمٍ حبيبـــــا[1]

هذه إطلالة سريعة علي أهم أغراب الشعر عند الباردوى أردت من خلالها أن أحيل القارئ إلي بعض جوانبه الشـــعرية ، علهـــا أن تكون نافذة يُطِلُّ من خلالها علي سِفْرِه الشعري العظـــيم ، وأن آخـــذ بيده إلي رحاب هذا الشاعر الذي يشبه الفضاء الشاسع الأبعاد الـــذي كلَّما أوغلنا فيه أطلت جوانب متعددة فيكون مصدراً لفيض لا ينقطـــع من الأبحاث والرؤى .

(١) الديوان حـــ١ ، صـــ ٨٤ .

المرأة في شعر البارودي

المرأة ذلك المخلوق العجيب تمثل في حياة الرجل الجانب الأهم والأكبر حيث أن معطيات هذا الكائن توحي بـدلالات عظيمـة ولكـل واحدة منهن في حياته ذلك الأثر الذي لا يغيض فهي إما أن تكون أماً أو أختاً ، أو بنتاً ، أو زوجة أو حبيبة ، أو عمةً ، أو خالة ، ولكـلٍ في قلب الرجل وحياته مكانة مكينة وإن كان للحبيبة المكان الأرفـع والمقام الأعلى فكل هاتيك النساء محبوبات للرجل ولكنهُ حب" متنوع يختلف كل واحد منه عن الآخر علي حد قول الشاعر :-

تسائلني ما الحب قلت عواطف .:. متوعـة الأجنـاس موطنهـا القلـب

فهذا حب أمومة وذاك حب أبوة والآخر حب بنوة إلي غيره من أنواع العواطف فهذه الصور من الحب مركوزة فـي الـنفس بحكـم الطبيعة الإنسانية وما جلبت عليه من عواطف ومشاعر ، واما حـب المرأة فشئ مختلف عن هذه وتلك لأنه إن تمكن مـن قلـب الرجـل صاحبه في حِلِّه وترحاله وفي غدُوّه ورواحه في نومه ويقظتـه لـم يشغله عنه شاغل لم ينسه في سبيل شئ بل ينسي كل شئ في سبيله ، فحب الرجل المرأة فطرة جُبَل عليها وطبيعة مركوزة فيه ، فمن من الناس لا تهفو نفسه إلي المرأة ، ومَنْ منهم لا يصـبو قلبـه إلـي جمالها ودلالها وحديثها ؟

((فقد شغل الناس بالحب منذ القدم وصـوَّر الشـعراء نعيمـه وجحيمه مذ كان الشعر ، وتملَّي الناس تصوير الشـعراء طـويلاً ، وأصغوا إلي حديثهم ملياً ، لا لأن الحب ترف أو شئ تكميلـي ، بـل لأنه في طبيعة الإنسان)) [1] .

(١) الغزل في العصر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، مطبعـة نهضـة مصر ط ٣ ، صـ ١٢٦ .

إذا كان هذا هو شأن الإنسان مع الحب ، فإن هذه العلاقة تكون من أخص خصائص الإنسانية سواءً كان رجلاً أو امرأة فالحب يُقَوِّي النفوس وبه يعزُّ الإنسان بين أقرانه لأنه أعطى للنفس حاجة من أساسيات عيشها وسعادتها ومن هنا فلا يلوم علي هذه العلاقة إلا من كان في تكوينه نقص أو خلل عضوي وروحي لذلك وجدنا الشعراء المحبين ينعون علي لائميهم لومهم فمن ذلك مثلاً الشاعر الذي يقول :-

أقول للائم المهدي ملامته ∴ ذق الهوى وإن اسطعت الملام لَمِي

وقول الآخر:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة ∴ مني إليك ولو أنصفت لم تلم

إذن هذه العلاقة فطرية فطر الله الناس عليها من لم تحركه نوازعه فهو غير سوي، وأبوفراس الحمداني يخاطب محبوبه فيقول:-

أراك عصي الدمع تسمتك الصبر ∴ أما للهوى نهي عليك ولا أمر

لذلك أراني أخالف كل المخالفة ذلك الباحث الذي أرهق نص المتنبي الذي يقول فيه :

وللخود مني ساعة ثم بيننا ∴ فلاة رئي غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا عِزّة" وطماعة" ∴ يَعَرّض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية ∴ وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوةٍ ∴ فليس لنا إلا بهنّ لعاب

يعلق الباحث علي هذه الأبيات فيقول :

" والمتنبي كان معروفاً بالاعتداد بالنفس ، والاعتزاز بالذات والاتصاف بالكبرياء ، وهذه الصفات كانت ملازمة له في كل تصرف يبديه ، فهو لا يحب أن يبدو في صورة الذل أو الضعف ، ومن هنا

كان ينكر علي نفسه أن تضعف أمام سلطان المرأة وتسلطها ، ولهذا وجدناه يلوي أعناق الحقيقة عندما يقول:

إنه من العيب أن يتعلق بالنساء ، ويمارس عشقهن بما فيه من ضعف وجبن يصيب العاشق، وما فيه من قهر وظلم للمحبوب ، وهذا ما لا يليق وشخصه الذي لا يقبل بالقوة بديلاً ، ولا عن الكبرياء والعزة تحويلاً ، فهو يفرض علي نفسه الصوم عن ممارسة هذا الحب ، أو الظهور بمظهر المحب الوامق الولهان "

المُعَنَّي بحبيبه، فهذا هو الضعف بعينه، فهو الرجل ذو الشخصية الفولاذية والقلب الصخر، فهو صاحب شخصية ذات صفات معينة فهو المتطلع إلي المجد، ذو الشخصية الطموح يرى في عشق المرأة مانعاً من تحقيق آماله الكبار ومجده المأمول(١) .

والحق كل الحق أن العاطفة الإنسانية بين الرجل والمرأة لا تكسب الرجل ضعفا ولا جبناً ولا ذلة وإنما تضفي عليه العزة والمهابة وتدفعه إلي الرقي والتقدم فكما جاء في آثار بعض المثقفين " أن وراء كل عظيم امرأة " وهذا حق فهي الدافع إلي الجد والعمل وكذلك دافعة إلي طاعة الله ألم يقلْ رسول الله " نعمت إمرأة أعانت زوجها علي طاعة الله " بل إن الرسول الأعظم صاحب العزة والمهابة آخر كلمات نطق بها أوصى بالنساء خيراً عندما قال " الله الله في النساء " بل هو القائل " حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث الطيب ، والنساء ، وجُعِلتْ قرة عيني في الصلاة " ومن شذ عن هذه القاعدة فإنما هذا لخلل في إنسانيته ورجولته بل في طبيعته التكوينية ومَنْ مِنَ البشر لم يحب فكلهم محب ولكن بعضهم يفصح وبعضهم يواري .

(١) مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ، العدد العشرون، صـ٣١٦:٣١٧ .

فكلما يقول أحد الباحثين: "ولم يقتصر الحب علـــي طائفـــة دون طائفة، أو يقف عند زمن دون آخر، أو بيئة بعينها دون أخرى ، بل صهر بحرارته الملك المتوج ، كما صهر راعي الإبل ، وانسل إلـــي قلب العبقري ، كما انسل إلي قلب الرجـــل العـــادي ، وأقبـــل عليـــه الحضري والبدوي ، كما اقتحم الحب قلب المملق والثري ، والقائـــد والجندي ، فالحياة كلها مبدانه ، والناس كلهم فرسانه ، فـــلا حـــرم يُتَصون منه ، ولا طائفة من الناس تختص بـــه ، يغـــزو بســـلطانه الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات ، بل الطير والحيوان "[1] .

أبعد هذا كله يقول أحد إنه مصدر للضعف والجبن والذلة والقهر كلا ، بل أرى أنه مصدر القوة والعزة والتقدم والرقي بل هو إكســـير الحياة بأسرها .

وبعد دراسة طويلة ومدققة لديوان البـــارودي وجـــدناه حـــافلاً بالحديث عن المرأة ولها ، ولم يقتصر حديثه عنها علي التغزل بهـــا وذكر محاسنها بل نجده، لها راثياً إن ماتت وشاكياً منها إن هجرت، والشوق والحنين إليها إن فارقت .

والشاعرُ وفيٌّ لأحبابه أحياءً وأمواتاً وليس هناك أصدق مـــن عاطفة الرجل حيال المرأة إن فارقت الحياة ومما يعمق هذا الوفاء إن فارقت الحياة وهو مكره علي فراقها بالنفي فلقد ماتت زوجته وهـــو في منفاه الذي طال وامتد سبعة عشر عاماً وكان ينتظر البريد ومـــا يأتي به من أخبار سعيدة علّها أن تخفف عنه ألم النفي والفـــراق إلا أنه جاءه بخبر أوهن عزمه وحطَّم عودة إذ يقول :-

وردَ البريـــدُ بغيـر مـا أملتـــه ∴ تَعِسَ البريـد و شاه وجـه الحـــــادي
فسقطـــتْ مغشيـا عليّ كأنمـــا ∴ نهشـت صـميم القلـــب حيّـــة وادي

(١) الغزل في العصر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، مطبعـــة نهضـــة مصر ط ٣ ، صـــ ١٢٦ .

ولقد نزل الخبر عليه نزول الصاعقة فنظم قصيدته مصوراً فيها جمرات أحزانه ، وآهات آلامه ، وانهمار دموعه فنجده في المطلع صارخاً جازعاً ناعيا علي الدهر فعلته، فقد أوهن عزمه وحطَّم عوده ، وأقذى عيونه ، وأضعف قواه ، يقول :-

أيد المنون قدحت أيّ زناد؟ ∴ وأطرتِ أيّة شعلة بفؤادي؟
أوهنتِ عزمي وهو حملة فيلق ∴ وحطمتِ عودي وهو رمع طرادي
لم أدرِ هل خطب" ألمّ بساحتي ∴ فأناخ؟ أم سهم" أصاب سوادي ؟
أقذي العيون فأسلبت بمدامع ∴ تجري علي الخدين كالفرصاد

والشاعر يعلن عجزه أمام هذا القدر المحتوم الذي فاق الحدَّ في ألمه وإيلامه فقد أنهك قواه وأذهب جمسه وأنحله وأضعفه حتى أنه من كثرة هزاله لم يكد يراه عوّاده إذ يقول :

ما كنت أحسبني أزاع لحادثٌ ∴ حتى منيتُ به فأوهن آدي
أبَلَتْنِي الحسرات حتى لم يكَدْ ∴ جسمي يلوح لأعين العوّاد
لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ∴ تقوى علي ردّ الحبيب الغادي

ولم يفته أن يصف بناته وقد تجرعنَ مرارة اليتم مشفوعة بغربة الأب فالدهر قد جعل فتياته وحيدات منفردات قد غيَّب النفي أباهنَّ ، وغيَّب الموت أمَّهن إذ يقول :

يا دهر فيما فجعتني بحليلة ∴ كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنتَ لم ترحم ضناي لبعدها ∴ أفلا رحمت من الأسى أولادي
أفردتهن فلم ينمنَ توجعاً ∴ قرحي العيونِ رواجف الأكبادِ
ألقينَ درّ عقودهن وصَغْنَ مِن ∴ درِّ الدموع قلائد الأجيادِ
يبكين من ولهٍ فراق حفية ∴ كانت لهنّ كثيرة الإسعاد
فخدودهن من الدموع ندّية ∴ وقلوبهن من الهموم صوادي

وبعد أن يبين ما آل إليه حال أولاده بعد أن اجتمع عليهن همُّ النفي للأب وهمُّ الفقد للأم نراه يعود إلي زوجته مرة أخرى بالحديث مبيناً أسباب فجيعته فيها إذ هي خلاصة عدته وعتاده ، وهي سليلة المجد عظيمة الحسب والنسب، وعزيز علي نفسه أن توسد التراب

وتسكن قبراً قاتم الأسداد بعد أن فارقت المنزل الذي كانت فيه الضياء والمبدد لكل ظلمة وسواد ، ثم يعلن أمنية يستحيل وقوعها وهي لو أن الدهر يقبل فدية أو بديلاً عنها بالنفس لكان أول من يبادر بهذا الفداء بنفسه ، ولو أنه يخاف أو يرهب صولة أو جناباً لفعل ما كان يفعله الحارثُ بن عُبَادْ [1] يصور البارودي ذلك فيقول :-

أسليلة القمرين أيّ فجيعة ∴ حلّتْ لفقدك بين هذا النادي
أعزز عليّ بأن أراك رهينة ∴ في جوف أغبر قاتم الأسداد
أو أن تبيني عن قرارة منزل ∴ كنتِ الضياء له بكل سواد
لو كان هذا الدهر يقبل فدية ∴ بالنفس عنك لكنتُ أول فادِي
أو كان يرهبُ صولة من فاتكٍ ∴ لفعلت فعل الحارثِ بن عَبَادِ

ثم يعود البارودي فيعلن استسلامه لإرادة الله وأنه لارداد لقضائه فحيال قدر الله لا بدَّ من التسليم والإخلاد والرضا ، إذن لا يرد قضاء الله وقدره شئ بل يجب التسليم والإذعان فجزع الفتى عند فقد عزيز دليل علي الوفاء ، والصبر عند البارودي علامة علي عدم الوفاء نجده يقول :-

لكنها الأقدار ليس بناجع ∴ فيها سوى التسليم والإخلاد
فبأي مقدرة أردُّ يدَ الأسى ∴ عني وقد ملكت عنان رشادي
أفأستعين الصبر وهو قساوة ؟ ∴ أم أصحب السلوان وهو تعادي؟
جزعُ الفتى سمة الوفاء، وصبره ∴ غدر يَدلُّ به علي الأحقاد

وإذا كان البارودي يرثي زوجته فهذا قبل أن يكون وفاءً لحليلته فهو تقدير وحبٌّ لها ، ولم يقتصر تقدير البارودي للمرأة كزوجة بل نراه في أعلى مجالي الوفاء عندما يرثي حاضنته ومربيته التي تدعى " مريم " التي أضفي عليها من الصفات التي تجعلها خليقة

(١) الحارث بن عباد البكري من سادات العرب وشعرائهم وأبطالهم في الجاهلية ، ومن أيامه المشهورة يوم " قِضّة " بكسر القاف وتشديد الضاد وهو يوم كان بين بكر وتغلب ، وكان من أبطال حرب السيوس بين بكر وتغلب.

بأن تشملها تحية من الله وهي في مستقر رحمته في روض من الفردوس الأعلى يقول :-

أمريم لا والله أنساك بعدما ∴ صحبتك في خفض من العيش أخضر
فقد كنت فنيا بَرّة القول سَرّة ∴ سليمة قلب في مغيب ومحضر
فلَقّيتِ من ذي العرش خير تحيةٍ ∴ توافيك في روضٍ من القدس أخضر(١)

وكذلك عندما جاءه نعى ابنته وهو في منفاه أصابه الفزع من هول المصاب عندها طلب من العين أن تهطل الدمع ولكن أبي الدمع أن يجيبه لأن المصاب جلل والحزن عظيم ويقدر عظم الرزء يكون الحزن وكلما اشتد الحزن امتنعت العين عن أن تجود يدمعها يذكرنا في ذلك بشاعرة العرب الخنساء عندما أصيبت في أخيها صخر نراها تستنجد بالعبرات فلم تجبها فتخاطب عينها مذكرة لها أن الفقيد هو صخر إذ تقول :

أعينيّ جودا ولا تجمدا ∴ ألا تبكيان لصخر الندى

نجد البارودي مصوراً لحالته وراثياً ابنته إذ يقول :

فزعت إلي الدموع فلم تجبني ∴ وفقد الدمع عند الحزن داء
وما قصّرت في جزع ولكن ∴ إذا غلب الأسى ذهب البكاء(٢)

والبارودي في هذا الرثاء إنما يطلعنا علي ما كان ينطوي عليه من حبٍّ وتقدير للمرأة أيما كانت زوجة أو بنتاً أو حاضنةً ومن وفائه وحبه للمرأة شوقه وحنينه إلي ابنته سميرة، عندما كان في المنفى فنجده يعلنها عالية مدَوِّية تمس قلب كلَّ أب حرمه البعاد من أبنائه يقول :

تأوّبَ طيف من سميرة زائر ∴ وما الطيف إلا ما تريه الخواطر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب ∴ بأرواقه والنجم بالأفق حائر

---

(١) الديوان، ط٢ صـ٩٦ .
(٢) الديوان ، ط١ صـ ٢٩ .

فيا لك من طيف ألمّ ودونه ∴ محيط من البحر الجنوبي زاخر
تخطى إليّ الأرض وجداً وماله ∴ سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
ألمّ ولم يلبث وسار وليته ∴ أقام ولو طالت عليّ الدياجر
تحمّل أهوال الظلام مخاطراً ∴ وعهده بمن جادت به لا تخاطر
خماسية لم تدر ما الليل والسَّرَي ∴ ولم تنحسر عن صفحيتها الستائر
عقيلة أتراب توالين حولها ∴ كما دار بالبدر النجوم الزواهر
تعودن خفض العيش في ظل والدٍ ∴ رحيمٍ وبيت شيدته العناصر[1]

ثم نصل التجربة عند الشاعر زروتها عندما يظن أن الخيال أصبح واقعاً ملموساً بل يعمق ذلك في نفسه أنه عندما يحن إلي بناته مع بعد ما بينهما ينظر إليهن وكأنهن أمامه علي بُعْدِما بينهما من مسافة ، وكعادته دائما ، يردع خياله ويوقن بواقعه المر المؤلم المصطدم بصخوره الموجعة فيقرر أن الأمر بيد الله سواءً قربة أو بعاده والكل راجع إلي الله وهذا هو حال الدنيا مع بني البشر يقول :

فهن كعنقود الثريّا تألّفتْ ∴ كواكبه في الأفق فهي سوافر
تمثّلها الذكرى لعيني ، كأنني ∴ إليها علي بعدٍ من الأرض ناظر
فَطَوراً إخال الظنّ حقاً وتارةً ∴ أهيم ، فتغشي مقلتيّ السمادر
فيا بعدما بيني وبين أحبتي ∴ ويا قرب ما التفتْ عليه الضمائر
ولولا أماني النفس وهي حياتها ∴ لما طار لي فوق البسيطة طائر
فإن تكن الأيام فرّقنَ بيننا ∴ فكل امرئ يوماً إلي الله صائر
هي الدار ما الأنفاس إلا نهائب ∴ لديها وما الأجساد إلا عقائر
إذا أحسنت يوماً أساءت ضحى غدٍ ∴ فإحسانها سيفٌ علي الناس جائر[2]

إذا كان هذا هو الحال البارودي مع المرأة راثياً ، ويغلبه الحنين فإن حالةُ مع المرأة محباً وشغوفاً قد ملأ عليه لبَّه وحياته فبتصفحنا للديوان وجدنا أن أغلب شعره في المرأة ، فإما أن يكون غزلاً خالصاً وإما أن يأتي مقروناً بالحديث عن الخمر ومجالسها أو أي أغراض أخرى فالمرأة تحتل من قلبه المكان الأعلى والأرفع وحب الرجل

(١) الديوان ، ط٢ صـ ٧٧ – ٧٨ .
(٢) الديون جـ٢ صـ٨٠ .

المرأة داء" قلما يبرأ منه إنسان ، بل كثيراً ما انتهى بأصحابه إلي الهلاك والفناء ، وكم سمعنا عن عاشقين ، صرعهم الحب وأهلكهم الوجد ، وصاروا في ذاكرة التاريخ قصصاً تتلي علي مسامع العاشقين و المحبين ، لذلك وجدنا البارودي يعلن ذلك في صراحة في قصيدته التي عارض فيها أبي فراس الحمداني في قصيدته التي مطلعها :

أراك عصى الدمع شميتك الصبر ∴ أما للهوى نهي" عليم ولا أمر

إذ يقول البارودي من قصيدته التي مطلعها :

طربتْ وعادتني المَخيلة والسُّكر ∴ وأصبحتْ لا يلوي بسيمتي الزجر

يقول :

فكيف بعيب الناس أمري،وليس لي ∴ ولا لامرئٍ في الحبِّ نَهي " ولا أمر ؟
ولو كان مما يستطاع دِفاعُهُ ∴ لألوَتْ به البِيضُ المبانيرُ والسُّمر[1]
ولكنه الحبُّ الذي لو تعلقتْ ∴ شرارته بالجمر لاحتراق الجمرُ
علي أنني كاتمتُ صدري حرقة ∴ من الوجد لا يقوى علي حملها صدر
وكفكفتُ دمعاً لو أسلتْ شئونه ∴ علي الأرض ما شك امرؤا أنه البحر
حياءً وكبراً أن يقال ترجحتْ ∴ به صبوة" ، أو فلّ من غربة الهجر[2]

ولقد تغنى البارودي بحبه وهتف به وأعلنه ، بل لم يتحرج في الكشف عمَّا يعانيه من عشق ووجد وصبابة من خلال نفثاته التي أطلقها والتي تَنُم عما يلاقيه في حبه يقول من قصيدته التي مطلعها :-

طربتْ ولولا الحِلم أدركني الجهل ∴ وعاودني ما كان من شِرّتي قَبلُ[3]

يقول :

وما كنتُ أدري – والشباب مطية ∴ إلي الجهل – أن العشق يعقبه الخبل
رمي الله هاتيك العيون بما رمتْ ∴ وحاسبها حسبان من حكمَهُ العَدَل

(١) البيض المبانير – السيوف القاطعة.
(٢) الديوان ، ط٢ صـ ٤٢ – ٤٣ .
(٣) الديوان ، ط٢ صـ ٣ ، صـ٣٧ .

أسير وما أدري إلى أين ينتهي ∴ بيَ السير ، لكنّي تلقّفني الشّبَل
فلا تسألنّي عن هَوايَ ، فإنني ∴ وربِّك أدرى كيف زلّتْ بيَ النّعَلْ
فما هي إلا أن نظرتُ فجاءةً ∴ بحلوان حيثُ انهال وانعقد الرمل
إلي نسوة مثل الجمان تناسقت ∴ فرائده حسناً أو ألفه الشّمل
من الماطلات المرءَ ما قد وعَدْنه ∴ كذاباً فلا عهد" لهنّ ولا إلّ
تكتّفنَ تمثالا من الحسن رائعاً ∴ يَجَنُّ جنوناً عند رؤيته العقل
فكان الذي لولاه ما دُرتُ هائماً ∴ أرودَ الفيافي ، لا صديق ولا خِلّ (١)

والبارودي يعجب كل العجب من نظرة واحدة من هذه الحسناء فقد فعلت به الأفاعيل لأنها جنت عليه ، وجلبت له بلايا العشق وأوصا به ، ولقد رُمِيَ قلبَه بهذه النظرة من تلك الحسناء وكان خلواً من الحب والهوى فاستقر حبها فيه وشُغِلَ بها فما زالت به حتى استبد الحب بفؤاده ، وذهبت به شواغل العشق ، وهموم الغرام يصور هذه النظرة وما فعلت ثم يعقب ذلك بوصفه لهذه الحسناء التي حسن منظرها ولطفت روحها إذ يقول :-

فويلمها من نظرة مضرحية ∴ رَميتْ بها من حيثُ واجهني الأثلُ (٢)
رَميتْ بها والقلب خلو من الهوى ∴ فما بَرحَتْ حتى استقلّ به شغلُ
لقدْ عَلقت ما ليس للنفس دونها ∴ غناء" ، ولا منها لذي صبوةٍ وصل
فتاة" يحار الطرف في قسماتها ∴ لها منظر" من رائد العين لا يخلو
لطيفةُ مجرى الرّوح لو أنها مشتْ ∴ على ساربات الدّرّ ما آده الحِمْلُ (٣)

وبعد أن صور ما حدث له من النظرة أخذ يصفها ويصف فعلها وما تفعله في قلوب ونفوس العشاق وأنها تفعل ما تفعله دون أي جناية فلا قصاص ولا دِية ، ثم يصف ما يلقاه عشاقها كل يوم فإن هيامهم بها ، وصدها عنهم – يتركهم صرعي كأنما سقطوا في معارك طاحنة دامية ، يشتد فيها الهلاك ويلتهب القتل ، ثم يصف تلك المعارك بأنها ليست معارك تجري فيها دماء الجرحى والقتلى ،

(١) الديوان ، ط٢ صـ ٤٥-٤٦-٤٧ .
(٢) مضرحبة – صفة للنظرة ومعناها : صائدة قاتله .
(٣) الديوان ، طـ٣ ، صـ ٤٨ – ٤٩ .

وترمي فيها النفوس بالسهام والنبال ، وإنما هي مصارع شوق وغرام ووجد وهيام ، وكثيراً ما يصرع الشوق الواجد المستهام يقول :

لها نظرة سكري ، إذا أرسلتْ بها ∴ إلي كبِدْ فالويلُ من ذاك والثكلُ[1]
تريق دماءَ حرّم الله سفكها ∴ وتخرج منها لا قصاص ولا عَقلُ[2]
لنا كلّ يوم في هواها مصارع ∴ يهيجُ الردي فيها ويلتهبُ القتلُ
مصارع قتل ليس يجري بها دم" ∴ ومرمى نفوس لا يطير بها نَبلُ
هنيئاً لها نفسي علي أن دونها ∴ فوارس لا خُرس الصِّفاج ولا عُزْلُ

والبارودي إن أحب المرأة فإن حبه لها يكون مبنياً علي مقاييس من الجمال والحسن والبهاء متمثلة في جمال عينها وضمور بطنها ، ورقة خَصْرِها وحَوَرِ عينها ، وهي عنده سليلة القمرين فهي كالشمس نهاراً وما تبعثه فيه من دفء وحيوية ، وهي كالقمر ليلاً وما يُضفيه من طمأنينة وسحر وقد جاء تصويره للمرأة وإظهار جمالها ومحاسنها بما أضفاه عليها من تشبيه لها بما سار عليه العرب في تصويرها بأمور تثير إلتفات العربي ، وتجذب انتباهه من الطبيعة حوله ، ولما كانت عيون المرأة هي أبرز ما يلفت نظر الرجل شبه عيونها معنوياً بالسهام التي تنفذ إلي القلوب فتصيبها ، ومادياً بعيون المهافي اتساعها وجمالها يقول البارودي :

هيفاءُ مالَ بها النعيم ، فخطوها ∴ دون القطاة ونطقها إيماء
ترنو بأحور لو تمكن لَحظةً ∴ من صخرة لا رَفضّ منها الماء
حكم الجمال لها بما تختاره ∴ فتحكمتْ في الناس كيف تشاء
أشقيقة القمرين أي وسيلة ∴ تُدني إليك فليس لي شفعاء[3]

(١) الديوان ط ٣ ، صـ ٥٠- ٥١ .
(٢) القصاص عقاب يقع علي الجاني بمثل ما فعل – العقل الدية.
(٣) الديوان ط ، صـ ١٣ .

والبارودى لم يفتن بجمال العين فحسب بل إن نظرة محبوبته الجميلة تشفي ما به من علل وأدواء انظر إليه وهو يقول :

أنا راض بنظره منك تشفي ∴ برح قلب هاجت به الأدواء
نظرة" ربما أماتت وأحيت ∴ ومن الخمر علة وشفاء [1]

وهو ينكر علي لائمه لأنه لا يدَ له في الحب وكل ما يرجوه أن يستقر قلبه ولكنه الحب الذي لا سلطان لأحد عليه ، وكم من مكان آمن لولا ما فيه من عيون الكواكب ، وهذا المكان حلو يرى المرءُ فيه كثيراً من الغيد الحسان مختلفان الأعمار فإلي جوار العوالي نواشئ لهن عيون عيناء وبشْرات بيضاء ووجوهن كواكب إلا أنها كواكب تسير على الأرض، هؤلاء الحسان صَوَّبْنَ أعيناً نظراتها تشبه السهام فصيرتهم قتلى الحب صرعى الغرام، وصرعى الغرام متنوعين.

فمنهم من هو صريع العين ومنهم من هو صريع الشعر والذوائب يقول البارودي مصوراً ذلك :-

فلا تعذلوني إن تخلفت بعدكم ∴ فما أنا عن مثوى الفؤاد براغب
فثمّ جناب لا يُرَاعُ نزيلُه ∴ بنائرة لولا عيون الكواكب[2]
وبين العوالي في الخدور نواشئ ∴ من العِينِ حَمرَ الحَلي بيض الترائب
إذا هنّ رقّعن السجوف أريننا ∴ محاسن تدعو للصّبا كل راهب
جلون بحلوانَ الوجوه كواكبا ∴ فيا مَن رأى في الأرض سير الكواكب
وفوّفنَ ألحاظا فأصمين أنفساً ∴ بلا تِرَةٍ إلا مجانة لاعب
فكم من صريع في حبائل مقلة ∴ وكم من أسير في قيود ذوائب[3]

وما أعظم البارودي عندما تفوق علي نفسه عندما وصف لنا حالته وما نتج عنها من أنه كثير البكاء شوقاً إلي أحبابه ويقرر أن

(١) الديوان ط ، صـــــ ٢٨ .
(٢) النائرة – العداوة والشحناء.
(٣) الديوان ط ، صـــــ ٥٩- ٦٠ .

ماء النيل إن زاد عن حده المعهود فما هذه الزيادة إلا لأن دموعه قد اختلطت به فعملت علي زيادته وهذه كناية عن كثرة بكائه وغـزارة دموعه لفراق أحبابه يقول :

وتيمنني حتى إذا ما تركنني ∴ أخا سَقَمٍ أسلمنني للنوائب
وما زاد ماءُ النيل إلا لأنني ∴ وقفت به أبكي فراق الحبائب (١)

والحب سلطان له الغلب علي قلوب المحبين والحب والشوق مصدر الحزن والاكتئاب بل هو مصدر دموع العين والتهاب الحشا والقلب ، بل تكاد الأحشاء أن تتمزق بل إنه لو تنفس تكاد الزفرة منه أن يتولد عنها الشرر كما أن القدحْ ينتج اللهب يصور ذلك فيقول :

لكل دمع جرى من مقلةٍ سببٌ ∴ وكيف يملك دمع العين مكتئب
لولا مكابدة الأشواق ما دمعتْ ∴ عين ، ولا باتَ قلب في الحشا يجبُ
فيا أخا العزل لا تعجل بلائمة ∴ عليّ فالحبُّ سلطان له الغلب
فكيف أكتم أشواقي وبي كلف" ∴ تكاد من مسّه الأحشاء تنشعب
أم كيف أسلو ولي قلب إذا التهبت ∴ بالأفق لمعة برق كاد يلتهب
إذا تنفستْ فاضت زفرتي شرراً ∴ كما استنار وراء القدحة اللهب (٢)

والبارودي في سبيل حبه قد جاد بكل شئ حتى أنه لم يبق له سوى روحه وقد جاد بها أيضا ، وكلما عاوده الحنين والحب اضطراب قلبه بين حناياه كأنه طائر في فخه قد وقع وفي هذا يذكرنا بقول الشاعر المحب :

كأن القلب ليلة قيل يغدي ∴ بليلي العامرية أو يراح
قطاة غرّها شرك فباتت ∴ تجاذبه وقد علق الجناح

ومع كل ما يلقاه من عذاب وألم في سبيل من أحب إلا أن الحب ملازم له وكأنه بين قلبه وبين الحب نسباً أو قرابة يصور ذلك فيقول :

---

(١) الديوان ط ، صـــ ٦٠ – ٦١ .
(٢) الديوان ط١ ، صـــ ٦١ .

لم يبق لي غير نفسي ما أجود بـه ∴ وقـد فعلـتُ فهـل مـن رحمـة تجـب
كـأن قلـبي إذا هـاج الغـرام بـه ∴ بـين الحشـا طـائر في الفـخ يضـطربَ
لا يترك الحب قلبي من لواعجه ∴ كأنمـا بـين قلـبي الهـوى نسـبٌ [1]

وجمال المرأة في رأي البارودي هو العامـل الأسـاس فـي إعجاب الرجل بها ولم يترك الحسن علي إطلاقه بل إن الحسن عنـده يتمثل في عين المرأة وصدرها وشعرها ، وهذه العناصر إن اكتملـت في امرأة فإن البارودي يعلن أنه يحتمل المكروه من أجلهـا ويبـذل المال علي حبه وينصح العاذل المهدي الملامة له علي حبه هـذا أن يتراجع عن لومه فإن الرشد والهدى أن لا يلومه عليه ، ثم يدعو الله أن يسامح محبوبه الذي أصابه في سويداء قلبه من نظرة من عينيه يقول البارودي مصوراً لهذا الأفكار والمعاني التي آمن بها :

يـا مـن رأي الشـادن في سـربه ∴ يتيـه بالحسـن علـي تربـهِ
أرسـل فرعيـه لكـي يعبثـا ∴ بـأكرتي نهديـه مـن عَجبـهِ
أحتمِـلَ المكـروه مـن أجلـه ∴ وأبـذل المـال علـي حبـهِ
قـد لامـني العـاذل فيـه ، ولـو ∴ رأى الهـدى أقصـرَ عـن عتبـهِ
وهـل يطيـق المـرء سـترا الهـوى ∴ مـن بعـد مـا اسـتولى علـي لُبّـهِ ؟
يـا سـامح اللّه عيـون المهـا ∴ فهُـنّ عـونُ الـدهر في حربـه [2]

والحب عند البارودي لا وقت له ولا أسباب ، وهـذه حقيقـة أشار إليها البارودي في قوله :

ومن العجائب في الهوى أن الفتـى ∴ يـدعى إليـه بـأهون الأسـباب
فـاربح ملامـك يـا عـذول فـإنني ∴ راض بسـقمي في الهـوى وعـذابي

والحب داء يمرض القلوب لا يشفي منه طبيـب ، إن أخفـاه صاحبه أتلف قلبه ، وإن أظهره أغضب حبيبه يقول :

بقلـبي للـهوى داء عجيـب ∴ تحيّـر في تلافيـه الطبيـب
إذا أخفيتـه أبلـى فـؤادي ∴ وإن أظهرتـه غضـب الحبيـب

(١) الديوان ط١ ، صـ ٦٢-٦٣ .
(٢) الديوان ط ، صـ ٧١ .

والبارودي ينعي علي قلبه أتباع ما رأت عيناه فلقد رأت غادة حسناء ذات طرْفٍ فاتر وذات خدٍ يشبه الورد وشعرها كالبنفسج وهي الغزالة مقلة والغصن قداً يقول :

قد كان لي قلب أصاب سواده ∴ سهم لطرفٍ فاترٍ فتفتتا
تَبِعَ الهوى قلبي فهام وليتَه ∴ قبل التوغل في البلاء تثبتا
ألقتهُ في شرك المودة غادة ∴ هيهات ليس بصاحبي إن أفلتا
كالورد خداً ، والبنفسج طرة[1] ∴ والغصن قداً ، والغزالة ملقتا[2]
نظرتْ بكحلا وين أودعتا الهوى ∴ بالقلب حتى هام ثم تخلتا[3]

والبارودي متيم بكل ما حوته محبوبته من عناصر للجمال ، فهي ذات خصر نحيل ، وردف ثقيل ، وهي كالغصن قيمة وقامة وعوداً واعتدلاً ، وملامحها تشبه البدر ، وقرطها في صفحة جيدها كأنه كوكب في مطلع الفجر يصور ذلك فيقول :

فتاة لها في منصب الحسنِ سُوَرَة" ∴ تقصر عنها الغيد وهي رواجح
أحاط علي مثل الكثيب إزارها ∴ ودارت علي مثل القناة الوشائع
ففي الغصن منها إن تثنتْ مشابه ∴ وفي البدر منها إن تجلتْ ملامح
محاسن ربات الحجال كثيرة ∴ ولكنها إن وازنتها مقابع
كأن اهتزاز القرط في صفح جيدها ∴ سنا كوكب في مطلع الفجر لائح[4]

والبارودي قد بلغ حدَّ النضج الفني عندما عارض قصيدة ابن النبيه والتي مطلعها (يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت) فقال : قصديه التي مطلعها :

ماذا علي قرة العينين لو صفحت ∴ وعاودت بوصال بعدما صفحت

(١) الطُّرة : هي الشعر الموفي علي الجبهة نظرة المرأة أي تسوية وتحفة وتصففه ٠
(٢) مقلتا – ماد ألفا فيها للضرورة الشعرية من أجل القافية ٠
(٣) الديوان ط ١، صـ ٩٤ ٠
(٤) الديوان ط ١، صـ ١٠٦ –١٠٧ ٠

نجد البارودي في هذه القصيدة قد تفوق علي نفسه وفنه عندما ذكر محاسن المحبوبة تفصيلاً بعد إجمال فقد عمد إلي التشبيه كما عمد إلي حسن التقسيم بل أكثر منه في أكثر من بيت فنجده يصف قدها وقامتها بالنعومة والطول ولأن الطول من السمات الشخصية التي تضفي علي المرأة روعة وجمالاً ((وأعني به الطول المعتدل الذي يزين الجسم ويكمله لا الذي يهجنه وينقصه ولقد أحب العرب المرأة الطويلة الطول الذي لا تكون معه قصيرة ، وذلك أنسب لشكلها وقوامها الذي أغرموا به، ومن شأن الطول أن يظهر محاسن الصدر، والخصر، والردفين، ومن شأنه أن يتناسب مع طول العنق ، وطول الشعر، وانسراح الساعدين والساقين ، ومن شانه أن يساعد علي مرونة الحركة والتثني)) [1] .

قال كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ∴ لا يشتكي قصر منها ولا طول[2]

وها نحن نرى البارودي يمتدح الطول المعتدل في محبوبته فيقول :-

خوطية القد ، لو مرّ الحَمَامُ بها ∴ لم يشتبه أنها من أيكِهِ انتزعت[3]

وقوله أيضا :

ويلاه ن لحظها الفتاك إن نظرت ∴ وآه من قدها العسّال إن سنحت
كالبدرإن سفرت والظبي إن نظرت ∴ والغصن إن خطرت، والزهر إن نفحت [4]

(١) الغزل في العصر الجاهلي: د. أحمد الحوفي، طبعة٣، صـ٣٦ .
(٢) جهرة أشغار العرب – القرشي – دار بيروت للطباعة والنشر ، صـ٢٨٢ .
(٣) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١١٥ .
(٤) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١١٦ .

وهذا البيت الأخير فيه حسن تقسيم وكأن الشاعر فيه رسَّام بالكلمات ، ومن حسن التقسيم عنده أيضاً قوله :

حنّت رَنّت عطفت مالت صبت عزمت ∴ همّت سَرَت وصلت عادت دنت منحت (١)

وبوصل محبوبته يحيا في جنَّةٍ مفتحة الأبواب ينال فيها كل ما تشتهيه نفسه يصور ذلك فيقول :

فبتُّ من وصلها في نعمة عظمت ∴ ما شئت ، أوجنةٍ أبوابها فُتِحَت
أنالُ من ثغرها الدُّرِّيِّ ما سألت ∴ نفسي، ومن خدّها الوردي ما اقترحت (٢)

ثم يواصل الوصف والتصوير الذي يصل إلي حد الإقناع و الإقتناع بهذه الأوصاف أن هذه الحسناء الجميلة نطقها غناء ، وإن تثنت في خطوها سمعت رنة حُلِيِّها ، وإن نظرت أصابت القلب في الصميم يصور ذلك فيقول :

هيفاء إن نطقت غنّت،وإن خطرت ∴ رنّت وإن فوّقت ألحاظها جرحت

ومن أجمل ما تغزل به شاعر في شعرنا العربي ما قاله البارودي:

والوَعَة القلب من غِزلان أخبية ∴ تكاد تسكر من أحداقها الراح
من كلّ مائسة كالغصن قد جمعت ∴ بدائعاً ، كلها للحسن أوضاح
فالعين نرجسة ، والشّعرُ سَوسَنَة" ∴ والنهد رمانة" ، والخدُّ تفّاح(٣)

والحبُّ أورث البارودي الشوق ، والشوق ما عرفه إلا من كابده ومن شدة الشوق البكاء ، والبكاء مريح لصاحبه وبكاء العاشق نازف لدموعه يحتاج مع عينيه عيون ذات دمع لا ينقطع لذلك وجدناه ينعى علي الحَمَام نواحه وإلفُه دائماً حاضر ، وأحباب البارودي في غياب عنه لذلك قلبه بالغرام جريح أصغ إليه وهو يخاطب حمام الأيك إذ يقول :

---

(١) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١١٧ .
(٢) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١١٨ .
(٣) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١٢٤ .

ألا يا حَمَامَ الأيك إلفُكَ حاضرٌ ∴ وغصنُكَ ميّادٌ ففيم تنوح
غَدَوْتَ سليماً في نعيم وغبطةٍ ∴ ولكنّ قلبي بالغرام جريح
فإن كنتَ لي عوناً على الشوق فاستعر ∴ لعينَيكَ دمعاً فالبكاء مريح
وإلا فدعني من هديلك وانصرف ∴ فليس سواءٌ باذلٌ وشحيح[1]

وبعد هذا وما هذا إلا أقل القليل من الكثير من شعر البارودي نجده يعلن رأيه في الحب وأنه ذو سلطان علي النفوس لا يرده عن قصده راد ، ولم يصده عن مرامه صاد فجنده وألويته كثيرة عُدَدُه وعتاده الجمال والحسن والملاحة رماحه قامات الفاتنات ، وسيوفه لحاظ العذارى ، ودروعه قلائد النساء ، فهو فارس لا يرتدعن فريسته حتى يزوها ، وهو له في كل حي واقعة ، فإن احتل قلباً حرك في الصدر وساوسه يصور ذلك فيقول :

وما الحبُّ إلا حاكم غيرُ عادل ∴ إذا رام أمراً لم يجد من يصدُّه
له من لفيف الغيد جيش ملاحة ∴ ثَغِيرٌ على مثوى الضمائر جنده
ذوابله[2] قاماته ، وسيوفه ∴ لحاظ العذارى والقلائد سَرْدَهُ
إذ ماج بالهيف الحسان تأرجتْ ∴ مسالكه واشتق في الجو نَدُّهُ
بلوتُ الهوى حتى اعترفتُ بكل ما ∴ جهلتُ ، فلا يغررك فالصاب شَهْده
ظلوم له في كل حيٍّ جريرةٌ ∴ يضج لها غور الفضاء ونَجْدَهُ
إذا احتلّ قلباً مطمئناً تحركتْ ∴ وساوسه في الصّدرِ واختل وَكْدَهُ
فإن كنتَ ذا لبٍّ فلا تقربنّهُ ∴ فغيرُ بعيدٍ أن يصيبك حَدُّهُ[3]

ومن أعظم ما كتب في فاتنات مصر قصيدة التي مطلعها :

أبابل رأي العين أم هذه مصر ∴ فإني أرى فيها عيوناً هي السحر

ويتحدث عن نساء مصر وعن عيونها وأنها تفعل ما لا تفعله السيوف والرماح بل لها السلطان الغالب علي القلوب والعقول ، وسحر عيونهن لا يبطل فموسى إن أبطل السحر في مصر فهذا كان

(١) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١٢٤ – ١٢٥ .
(٢) الذوابل : الرماح .
(٣) الديوان ، ط١ ، صـ ١٤٠-١٤١ .

زمن المعجزات و أما عصرنا فلا معجزات فيه ، فهي فتاة تحت قناعها وجهاً هو القمر وتحت بردها قداً هو الغصن النضر ، وأسنانها تشبه ماء القطر الصافي فوق أقحوانه بيضاء ناصعة فيها فلج وكل هذا يسميه الناس ثغر ، تدين لعينيها سواحر بابل والخمر تُسْكِر فإن لامست ريقها سكرت الخمرُ ، يصور ذلك فيقول :

نواعس أيقظن الهوى بلواحظ ∴ تدين لها بالفتكة البيض والسُّمَرُ
فليس لعقل دون سلطانها حمي ∴ ولا لفؤادٍ دون غِشْيانها ستر
فإن يك موسي أبطل السحر مّرةً ∴ فذلك عصر المعجزات وذا عصر
فأي فؤاد لا يذوب صبابة ؟ ∴ ومزنة عين لا يصُوب لها قطر؟
بنفسي وإن عزّت عليّ ربيبة ∴ من العين في أجفان مقلتها فترُ
فتاة يرف البدر تحت قناعها ∴ ويخطر في أبرارها الغصن النضر
تريك جمان القطر في أقحوانة ∴ مفلجة الأطراف قيل لها ثغر
تدين لعينيها سواحر بابل ∴ وتسكرَ مِنْ صهباء ريقتها الخمر(١)

يعد هذا وما هذا إلا قليل من كثير عشنا مع البارودي في تناوله للمرأة في شعره ، فوجدناه يعبر عنها بكل الدلالات فهي عنده الحياة والأمل ، وهو بهذا يحيا حياة الرجال الأسوياء الذين يعشقون المرأة ، بل يحيون بها ولها فالحياة الحب والحب الحياة ، فوجدناه يتناولها في غزلياته ومراثيه ، يتحدث عنها محبوبة فيصف جمال الروح والجسد وأثر ذلك كله في حياته ، وهو في حبه هذا صاحب عاطفة صادقة ، وهو شاعر غَزِل من الطبقة الأولي وقد جاءت معانيه متلائمة مع ما انطوت عليه نفسه، فهو صادقٌ فى مشاعره وفى كل ما كتب وليس كما قال عنه مقدم ديوانه محمد حسين هيكل (أما عن شعره فى الغزل وفى الخمر شعر محاكاة أكثر منه تحدثاً عن غرام صادق أخذ بمجامع قلبه، وعن إغراق فى اللهو والخمر وولع بهما وأن هوى نفسه كان إلى شئ غير المرأة وغير الخمر، وأن

(١) الديوان ، ط٢ ، صـ ١٣٠-١٣١ .

حديثه عن الخمر وعن المرأة إنما كان تقدمة إلى الفخـــر والوصـــف والسياسة وغيرها من الأغراض التى يريد القول فيها، وأنه فى هذه التقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين، وما أكثر ما نسج البـــارودى على غرارهم، فهو طالما راض القول معارضـــاً الفحـــول الأولـــين، محاولاً أن يبذهم فى ديباجته وفى قوة معانيه، ثم كان يجعل الغـــزل واللهو والخمر والنساء والحماسة والفخر أغراضاً له فى القصـــيدة الواحدة على طراز من حمل نفسه على معارضتهم ومن كانت هـــذه حاله لم يكن غزله ولم يكن لهوه صادرين عن عاطفة ألهبها الحب[1].

(١) مقدمة الديوان بقلم محمد حسين هيكل صـــ ١٨: ١٩ .

الفصل الثاني
خصائص شعر البارودي في تصوير المرأة
الألفاظ والأساليب

الألفاظ هي الوسيلة لإدراك القيم الشعورية في أي عمل أدبي ، وهي الأداة التي تهيئ الأديب أن ينقل لنا تجاربه الشعورية " ففي أي عمل أدبي تناغم بين الفنان والطبيعة وفي تجربته الفنية يشكل بالألفاظ تصوراً لما حوله أو لبعض ما حوله ويقدمه لنا في إطار يحرص علي أن يضمنه أحاسيسه وأفكاره "(١) .

ومن المحقق عند نقاد الأدب أن تصدر أحكاماً علي الشعراء دون تحليل مسبق للغتهم الشعرية " فكل شاعر يتناول الأغراض التي ينظم فيها من رؤيا خاصة مستعيناً في التعبير عنها بوسائل أسلوبية مميزة "(٢) .

وعلي هذا بعد أن عرضنا لبعض شعر البارودي في المرأة ، فالدراسة تحتم علينا أن نحلل بعض الملامح الأسلوبية واللفظية المميزة لشعره فيها فدراسة لغة الشاعر المرتبطة بهذا الموضوع توحي بأن الشاعر استخدام ألفاظاً وتراكيب لفظية ذات دلالات متنوعة تختلف باختلاف أحاسيسه وعواطفه ، وأول ما يستوقفنا هو استخدام الشاعر لألفاظ ذات طابع عاطفي تملؤه مشاعر فياضه توحي بعاطفة حقيقية غير تقليدية من ذلك قوله في رثاء زوجته :

فسقطت مغشيا عليّ كأنما ∴ نهشت صميم القلب حية وادي
ما كنت أحسبني أراع لحادث ∴ حتى منيت به فأوهن آدى
أبلتني الحسرات حتى لم يكد ∴ جسمي بلوح لأعين العواد

(١) النقد الأدبي الحديث أحمد كمال ذكي ، صـ ٣٩ .
(٢) اللغة والدلالة في الشعر د. علي عزت ، صـ ٩ .

لا لوعتي تـدع الفـؤاد ولا يـدي ∴ تقـوى علـي رد الحبيـب الفـادي
يا دهـر فيما فجعتني بحليلـة ∴ كانـت خلاصـة عـدتي وعتـادي

فالحالة حالة فَقْد لزوجته وحبيبته التي هـي خلاصـة عدتـه وعتاده ، لذلك وجدنا ألفاظه موحية ومصوره لحالته عنـدما جـاءه نبؤها من ذلك " فسقطت – مغشياً عليَّ – أراع منيـت – أوهـن – أبلتني – الحسرات – لوعتي – رد الحبيب " .

وهذه الألفاظ المختارة تعبر في وضوح وسهولة عن إحسـاس الشاعر بالفقد ، ومن هنا تكون اللغة لا نرمز إلي أفكار فحسب وإنما أيضاً تكشف عن عواطف " فهي النظام الذي يحلل القيم العاطفيـة ، وعندما تظهر الوقائع التعبيرية محدودة وشخصية تتعين لنا ملامحها العاطفية"(١) .

ومن قبيل الألفاظ التي تكشف عن طبيعة الشاعر المحب للمرأة في جميع حالاتها واصلة وهاجرة حية ومرثية استخدام الشاعر ألفاظ تتصل بالطبيعة ، يجعلها وسيلة فنية للإعراب عن عواطفه ومشاعره يمثل ذلك قوله :

ألقتـه في شـرك المـودة غـادة ∴ هيهـات لـبس بصـاحبي إن أفلتـا
كـالورد خـدآ والبنفسـج طـرة ∴ والغصـن قـدآ والغزالـة مقلتـا(٢)

فقد أتى من عناصر الطبيعية بما يناسب عاطفته ليصور بعـض أعضاء محبوبته بهذه العناصر ليكشف للمتلقي عن عواطفه من خلال اختياره لهذا المشبهات – الورد – البنفسج – الغصن – الغزالة .

---

(١) العدد الثاني من مجلة فصول – المجلد الأولي يناير سنة ١٩٨١ ، من بحث للدكتور – سليمان العطار – الأسلوبية علـم وتـاريخ ، صـــ ١٣٢ .

(٢) الديوان ، ط١ ، صـــ ٩٤ .

والشاعر كثير ما يأتي بألفاظه من بيئته المحيطة به فعندما أراد أن يصور جمال محبوبته من ذلك قوله :-

أحاط علي مثل الكثيب إزاراها ∴ ودارت علي مثل القناة الوشائح
ففي الغصن منها إن تثنت مشابه ∴ وفي البدر منها إن تجلت ملامح
كأن اهتزاز الفرط في صفح جيدها ∴ سنا كوكب في مطلع الفجر لائح(1)

إذن البارودي في استخدام لألفاظ يأتي من الألفاظ بما يتناسب مع حالته النفسية والمزاجية فهو عند الرثاء يأتي من الألفاظ بما يتناسب مع هذا الجو الحزين مثل (اللوعة – الحزن – الحسرات – فجعتني ضناي – الأسى – توجعاً – فرحي العيون – رواجف الأكباد – الدموع – وله – صوادي – فجيعة) .

ونراه أيضا في الحديث عن الحب والجمال يأتي من الألفاظ بما يناسب حالته العاطفية والمزاجية من مثل (الورد – المسك – البنفسج – الغصن – الغزالة – البدر – الظبي – الزهر – الدُّر) .

ومن هنا فللبارودي قاموسه الشعري الذي يمتاح منه وأحسبه قاموساً ثرياً لا يغيض .

(١) الديوان ، ط١ ، صـ ١٠٦ – ١٠٧ .

الأسلوب

لكل شاعر أسلوب يميزه عن غيره من الشعراء والبارودي وإن سار علي درب أجداده العباسيين إلا أننا نجد له سمات لا نجدها عند شاعر سواه ، وليس معني هذا أنه يختلف عن جميع الشعراء وإنما يعني أن له طريقة في نظم لغته تضمن له بعض الاستقلال ولما كان ذلك الشاعر دائم الثورة علي ما يكره ويأنس لما يحب ، فقد عرفت نفسه بانطباعاتها كيف نفرض نفسها علي بيانه وتجعله صادقاً ومن ثم أصبح صورة خاصة كشفت عن طريقة تفكيره في الأشياء أو تفسيره لها ، وإذا كانت هناك ملامح عامة تسيطر علي أسلوب الأدباء بصفة عامة في عصر من العصور فإن ذلك لا يعفيهم من الاعتماد علي أنفسهم لإظهار شخصيتهم في أسلوبهم ، وعلي هذا فمن الصحيح أن يقال أن للأسلوب صفات عامة تحقق له الكمال ، وسمات خاصة تميز أديباً عن آخر وهو ما يطلق عليه " إخلاص الأديب لأدبه وفنه " لذلك وجدنا أحد الباحثين يقول :

(الإخلاص في تصوير ما في النفس من فكرة واضحة أو عاطفة صادقة تجعل الأسلوب مقبولاً ، ويصبح من ثَمَّ مرآة العقل والخلق والمزاج والتخيل ، سواء أكانت تلك جميلة أم قبيحة مستقيمة أم مضطربة) (١)

وأهم ما يميز أسلوب البارودي في شعره عامة وشعره في المرأة خاصة " الوضوح فقد كان يعمد إلي الوضوح وعدم الإبهام لأن البارودي من فهمه لرسالة الشعر أن وضوح الأسلوب دليل علي وضوح الفكرة لديه ، والبارودي كان يملك ناصية اللغة مما مكنهُ من التصرف في تراكيبه وإحكامها فيقول مثلاً :

---

(١) الأسلوب – أحمد الشايب ، صـــ١٧٥ .

ومن العجائب في الهوى أن الفتى ∴ يدعى إليه بآهون الأسباب
فأربح ملامك يا عذول فإنني ∴ راضٍ بسقمي في الهوى وعذابي

وكذلك قوله:

وهل يطيق المرء ستر الهوى ∴ من بعدما استولى علي لبّه

ومن سمات الأسلوب عند البارودي أن أسلوبه يعتمد علي " القوة " وقوة الأسلوب صفة نفسية تنبع أولاً من نفس الأديب ، وقوة أسلوب البارودي ومتانته تتمثل في التزامه بأسلوب الأقدمين حيث أنه كان يستلهمهم أو يعارضهم ومن الصفات الملازمة لشعر البارودي الجمال ، فالجمال صفة ملازمة للأسلوب الشعري بوجه عام طالما أن الشاعر معني" بإثارة القراء وتحريك خيالهم وهو صفة نفسية مناطها روح الأديب وذوقه ، وجمال الأسلوب يعتمد علي صفتين أساسيتين :

أولاهما خلو الأسلوب من أسباب الاضطراب الصوتي والخشونة القاسية التي لا تنم عن عاطفة .

وأما عن الثانية فيراد بها التناسب وهو يعني مطابقة اللفظ للمعني ، وإن تكن تعني في المقام الأول التصوير أو المجاز ، وهذا يستلزم استيحاء الشاعر شعوره واسترفاد خياله .

وقد حرص البارودي علي تحقيق السمتين في أسلوبه إذ كان ينتقي الألفاظ الجيدة علي التراكيب الواضحة التي يراعى فيها التناسب بين اللفظ والمعني ، علي أساس أن النبرة الشديدة يختار لها الألفاظ الجزلة والنبرة الهادئة الرقيقة يختار لها الألفاظ الرشيقة فمن أمثلة أساليبه ذات النبرة الشديدة خطابه للموت في رثاء زوجته عندما قال :

أيد المنون قدحت أي زناد ∴ وأطرت أية شعلة بفؤادي
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق ∴ وحطمت عودي وهو رمح طرادي

لم أدر هل خطب ألمّ بساحتي ∴ فأناخ أم سهم أصاب سوادي

فقد وفق البارودي في تكوين العبارات الملائمة للنبرة العالية في قوله :

" قدحت أي زناد – وأطرت أية شعلة بفؤادي – خطب ألمَّ – أناخ – أم سهم أصاب أوهنت عزمي – حطمت عودي " .

وهي في جملتها تحمل دلالات القوة التي تتلائم مع المصاب .

أما المعني الرقيق فقد اختار له الألفاظ الرشيقة علي نحو ما نرى في قصيدته التي يقول فيها :-

من لقلبي بشادنٍ ∴ لم يُمتّع بحظه ؟
قد سباني بطرفه ∴ وشجاني بلفظه
كل شئ سيرعوى ∴ غير قلبي ولحظةِ (1)

وقوله :

فيا دموع القطر سيلي دماً ∴ ويا بنات الأيك نوحي معي
وأنت يا نسمة وادي الغضي ∴ مَرّي برِيّاك علي مربعي
وأنت يا عصفورة المنحني ∴ بالله غنّي طرباً واسجعي (2)

فقد اختار أسالِيباً تحمل فى طياتها الرقة والحب والحنان من مثل – دموع القطر – بنات الأيك – نسمة الوادى – مرى برياك على مربعى – عصفورة المنحنى – وأخيراً غنى طرباً واسجعى.

(١) الديوان ، ط٢ ، صـ ٢٠٠ .
(٢) الديوان ، ط٢ ، صـ ٢١٨ – ٢١٩ .

الموسيقي الشعرية

صيغ الشعر العربي منذ القدم في كلام ذي توقيع موسيقي ووحدة في النغم تنشد من أزر المعني وتجعله ينفذ إلي قلوب سامعيه وتوحي به ، والإنسان منذ نشأت الفنون يطرب للنغم حتى في عصره الفطري، لذلك يقول بن عبدربه في كتابه العقد الفريد: "زعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر الإنسان علي استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان علي الترجيع لا علي التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنت إليه الروح ، ولذلك قال أفلاطون : " لا ينبغي أن تمنع النفس من مكاشفة بعضها بعضا ، ألا ترى أهل الصناعات كلما خافوا الملالة والفتور علي أبدانهم ترنموا بالألحان"(١) .

والموسيقي تعد العنصر المميز للشعر عن غيره من فنون الكلام لذلك يقول أحد الباحثين "لا يوجد شعر بدون موسيقي يتجلى فيها جوهره الزاخر بالنغم، موسيقي تؤثر في أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التي تشبه قوى السحر ، قوى تنشر في نفوسهم موجات من الانفعال يحسون يتناعمهم معها ، وكأنما تعيد فيهم نسقاً قد اضطرب واختل نظامه ، فهي ترجع به إلي سويته ، ونقصد سوية حياتنا الوجدانية ، وبذلك فإن موسيقي الشعر تشبع فينا حاجات عميقة إذ تعيد الأوتار المشوشة في قيثارة حياتنا الوجدانية نسقها الطبيعي ، وهو إحساس دقيق بأن الموسيقي لبُّ الشعر وعماده الذي لا تقوم له قائمة بدونه(٢) .

---

(١) العقد الفريد: ابن عبد ربه – طبعة المطبعة الشرقية ، ط٣ ، صـ ١٧٧ .

(٢) فصول في الشعر ونقده – د. شوقي ضيف، صـ ٢٨ .

والنقاد العرب قد جعلوا من الموسيقي الشعرية قالباً محكماً لا يجوز المساس به من خلال التزامهم بمجموعة من التكرارات الصارمة حيث يقوم شكل الموسيقي علي عدة التزامات منها :-

١- تكرار وحدة صوتية معينة هي " وحدة الإيقاع " التي تتألف فيما عرف عند علماء العروض باسم التفاعيل .

٢- تكرار عدد معين من وحدات الإيقاع يؤلف بدوره وحدة موسيقية جديدة مركبة هي البيت الذي يتألف من عدد محدد من التفاعيل أو وحدات الإيقاع لابد من التزامه في كل بيت علي امتداد القصيدة .

٣- تكرار صوت معين أو مجموعة من الأصوات – الساكنة أو المتحركة – في نهاية كل بيت بحيث يلتزم هذا الصوت بعينه في آخر أبيات القصيدة كلها وهذه هي القافية .

٤- الإلتزام بتكرار صيغة محددة من صيغ التفعيلة في البيت وهي آخر تفعيلة فيه ويسمونها الضرب ، فإذا جاءت هذه التفعيلة في البيت الأول علي صيغة معينة سواء أكانت صحيحة أو معلَّة ، وجب أن تلزم هذه الصيغة بعينها طوال القصيدة.

وهناك نوع آخر من الموسيقي يسمي الموسيقي الداخلية ، وينشأ هذا النوع عن اختيار ألفاظ ذات وقع خاص وتأليفها في صورة صوتية معينة تبعث في الفكرة والعبارة روحاً جديدةً تجعلها أقدر علي النفاذ إلي النفس ، وتحكم هذه الموسيقي قيم صوتية أوسع من الوزن والنظم وهي تساير الموضوع وتزيده ثراء في العاطفة ، و قوة في التأثير ومن هنا نحس تفاوتاً في الموسيقي بين الأغراض الشعرية ، فلا تتساوى أنغام الغزل مع الرثاء ، أو الحماسة مع الحنين ، كما تحس هذا التفاوت في موسيقي الشعر بين اللين والشدة

والانخفاض والارتفاع والطول والقصر ، تبعاً للمواقف المختلفة ، وهذه الموسيقي الداخلية منها :

لون واضح يعتمد علي التكرار – الجناس – حسن التقسيم – الازدواج – المقابلة وغير ذلك من المحسنات التي يمكن إدراكها .

ولون خفي لا يدرك في يسر ووضح ولكننا نحسه فيما يشيعه النص من جو يلائم حالة الشاعر النفسية ويتفق وتجربته .

وهذا اللون من الموسيقي ينشأ من حسن اختيار الكلمات وحسن التأليف بينها ، واختيار الصور والأخيلة الموحية والمؤثرة[1] .

وقد أجاد البارودي في استخدامه للوزن الشعري حيث تلاءمت موسيقي البحر مع النغم النفسى لتراكبيه فمثلاً قصيدته في رثاء زوجته والتي يقول فيها :

أيد المنوف قدحت أي زناد ∴ وأطرت أية شعلة بفؤادي

نجد أن الشاعر قد اعتمد فيها علي تفعيلات بحر " الكامل " فجاءت من تامة بعروض صحيحة وضرب مقطوع وبحر الكامل إيقاعه بطئ ونفسه طويل يلائم عاطفة الشجي والشجن والحزن والألم ، ولقد اختار الشاعر الدال المكسورة نهاية لقافيته مسبوقة بألف المد تُعَدُّ نهاية الآهة الحزينة ، واستراحة لشحنة الأسى وامتداد لزفرة الألم المتقد بين جوانح الشاعر الحزين.

ولقد اختار الشاعر ألفاظه علي مدار القصيدة بعناية فائقة كما اتسعت أساليبه مع جو الحزن والرثاء مما عبَّر عن مشاعره بصدق ويسر وسهولة أنظر إليه وهو يقول :

---

(١) راجع في ذلك – الإعلام في شعر الجارم ، رسالة دكتوراه للباحث ، صـ ٣٥٢ – ٣٥٦ .

أستنجد الزفرات وهي لوافح ∴ وأسفه العبرات وهي بوادي
لا لوعتي تدع الفؤاد ولايدي ∴ تقوي علي رد الحبيب الغادي

وأنظر إلي جمال الشاعر وجمال موسيقاه الداخلية التي نشأت من حسن التقسيم في قوله :

كالبدرإن سفرت والظبي إن نظرت ∴ والغصن إن خطرت والزهر إن نفحت

والبارودي صاحب مقدرة فنية لذلك وجدناه يفوق أسلافه عندما نظم شعراً علي وزن مخترع حيث وجدناه ينظم قصيدة علي مجزوء المتدارك وهو بحر لم تقل العرب منه فيما نعلم يقول :

إملأ القد ∴ واعص من نصع
وارو غلتي ∴ بابنه الفرح
فالفتى متى ∴ ذاقها انشرح
وهي إن سرت ∴ في العليل صح[1]

وهو في قوافيه يحاول أن يحقق التكامل والانجسام بين الأصوات في أبياته وقصائده مما يعمل علي إنجاح التناسب الموسيقي بين اللفظ والمعني ، وذلك يعمل علي وفرة النغم الموسيقي ويبعد عن الخلل في تتابع الأصوات والموسيقي الداخلية نجدها أشد أثراً وأبلغ أهمية لما نحمله من المظاهر النفسية والوجدانية ، كما تدلنا علي تمكنه من استخدام مفردات اللغة .

(١) ديوان البارودي ، ط١ ، صـ ١٢١ .

الصورة الشعرية

يعتمد الأديب علي الصور والأخلية التي تبرز ما يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس وانفعالات ، وفي التعبير عن تجربته تعبيراً حياً مؤثراً ، فالصورة في معناها الجزئي والكلي هي : الوسيلة الفنية لنقل التجربة الشعورية أو هي كما قال أحد الباحثين : (هي علاقة صريحة ، أو ضمنية بين تعبيرين أو أكثر تقام بحث تضفى علي أحد التعابير أو مجموعة من التعبيرات لوناً من العاطفة ، وتكشف معناه التخيلي ، وليس معناه الحرفي دائماً ويعاد خلقه ويتم توجيهه إلي حدٍ ما من خلال ارتباطه أو تطابقه مع التعبير أو التعبيرات الأخرى[1].

وبهذا تكون الصورة ذات مفهوم أعم وأشمل إذ أنها تتجاوز الاستعارة والتشبيه إلي المجاز والتشخيص والرمز فالشاعر يستخدم التشبيه والاستعارة والمجاز ليقرب بين أمور متباعدة لينتهي من هذا التقريب إلي التوضيح أولاً ثم الإمتاع الفني ثانيا ، وإلا انعدام الدافع الذي يحدو بالشاعر إلي أن يبذل جهده وفكرة وطاقته ، ليربط بين الأشياء المختلفة التي يقع بينها وجه من أوجه الشبة كأن يربط بين الورد ووجنات الحبيب ، أو بين النرجس وعينيه ، أو بين الظبي ورشاقته ، أو بين البدر وبهائه ، وغير ذلك من التشبيهات التي طرقها الشاعر العربي كثيراً حين أدرك بحسه الفني أن طبيعة الألفاظ والمعاني وحدها لا تحقق له رسم الصورة التي يريدها بما ينبغي لها من الألوان والخطوط والأشكال ، وأن عليه أن يعمد إلي التشبيه والمجاز و الاستعارة ليوحي بتلك الأشكال والألوان وأمثالها التي يريد أن يصورها ، وليذكي ما يتصل بها من عواطف ومشاعر أصيلة

(١) الصورة والبناء الشعري د. محمد حسن عبدالله، صـ٣٧ .

جديدة ، وكأنه يمسح بتلك التشبيهات والمجازات ما ران علي تلك الأشكال من غشاوة الألفة ، ويحسر عن وجهها المبتكر الطريف حتى ليبدو كأننا نراه بعين الشاعر وننظر إليه بإحساسه وعاطفته وخياله ، وهكذا تنشأ دنيا جديدة مملوءة بالأشكال والألوان والتحف ، هي كنوز الفن الفكرية تضاف إلي دنيا الطبيعة الحية(١).

وكل فنان يريد أن يقف من زاوية فنه علي هذه العلاقات التي تربط بين الأشياء، ولكن ثمة فرقاً واضحاً بين الشاعر وغيره من الفنانين، فالشاعر إنما يستخدم الصورة التشبيهية ، أو الاستعارية أداة لفنه ، لأنه لا يملك ألوان المصور ولا ريشة ، ولا أزميل النحات ، ومن هنا فإنه يستبدل بذلك كله أنماطاً مختلفة من التشبيهات والاستعارات التي تعد – بالنسبة للشاعر – بمثابة الريشة والأزميل عند صاحبيهما ، وعلي هذا الأساس تبرز عدة حقائق مرتبطة بوظيفة التشبيه والاستعارة في أن كلاً منهما يقرب كما أنه يبعد ، وهو يركب الشئ تركيباً ويمثله تمثيلاً ، ويعرضه علينا بدلاً من أن نبحث عنه(٢).

والبارودي قد أبدع في صورة إبداعاً يعيدنا إلي العهود السالفة وإبداعه هذا يتفق مع طبيعته الفنية ، فلقد استخدم التشبيه وأكثر منه في تصويره للمرأة ومما يلفت النظر أنه قد أكثر من التشبيه البليغ وهو محذوف الوجه والأداة من مثل قوله :

أسليلة القمرين أي وسيلة ∴ تدني إليك فليس لي شفعاء

(١) راجع في ذلك – دراسات فنية في الأدب العربي – د. عبدالكريم الباقي ، طبعة مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٣، صـ٣٩٧ .

(٢) راجع في ذلك – الإعلام في شعر الجارم ، رسالة دكتوراه للباحث ، صـ٢٩٨ .

قوله :

نظـــرة ربمـــا أماتـــت وأحيـــت ∴ ومـــــن الخمـــــر علـــــة وشـــــفاء

ومن صورة الفنية التي أيدها بشئ من الواقع قوله :

إذا تنفستْ فاضت زفرتي شـــرراً ∴ كمـا اسـتنار وراء القدحـة اللهـــب

ومن التشبيهات التي استقاها من أجداده العباسيين قوله :

كأن قلبي إذا هاج الغـــرام بـــه ∴ بين الحشـا طـائر في الفـخ يضطـــرب

* والبارودي يستمد صورة وأخليته من بيئته التي يحيا فيهـــا حيث أن البيئة التي يعيش فيها الشاعر هي المصدر الأول الذي يمده بروافد صورة الشعرية، والتي منها يستمد الخيال لصوره ومشاهده، والبارودي عاش حياة لم تخالف حياة الكثيرين من شـــعراء عصـــره الذين أظلتهم البيئة المصرية بكل معالمها وخصائصها ، يضاف إليها بيئته العباسية الخاصة حيث أنه قد تشبع بأفكار وتشبيهات وصـــور أجداده العباسيين الذين تتلمذ ونما وترعرع علي موائد دواويـــنهم ، والبيئة المصرية بكل ما فيها من معالم وملامح ، كانت هـــي المـــادة الأولي التي استقى منها البارودي موضوعاته ، وصاغ منها صوره ، وكانت ملهمته الأولي التي استعان بها في تكوين صـــورة الشـــعرية وتلوينها لقد متح البارودي من بيئته تلك خيالـــه الـــذي صـــور بـــه عواطفه تجاه من أحبها وتغزل فيها ، وكان البارودي صـــادقاً فـــي تجاربه مع ما في بيئته من عناصر طبيعية وكونيـــة ، لأنـــه أحـــس بجمالها وتخبر من صفاتها ما يمت إلي الحبيبة بصلة ، أو يمتُّ إليها بسبب ، وذلك حين تناول ما تتمتع به الحبيبة من ملاحة وجمـــال ، إذن استمد البارودي صوره من الطبيعة الحيَّة المتحركـــة ، ومـــنح خياله من مفرداتها المختلفة فراقهُ من الظبية سعة عينيهـــا وشـــدة سوادها ، ونصاعة بياضها ، فشبه عيني المحبوبة بها يقول :

كالبدرإن سفرتْ والظبي إن نظرت ∴ والغصن إن خطرت والزهر إن نفحتْ

بل هو يصور عيون المحبوبة بالسيوف والرماح فى الفتك والوصول إلي الغرض من قلب الرجل إذ يقول :

هيفاء إن نطقت غنت،وإن حظرت ∴ رنّتْ وإن فوفت ألحاظها جرحتْ

بل نجد البارودي يجعل من العيون مُسْكِرة وهي لا تسكر العقول بل تسكر الخمر ذاتها إذ يقول :

والوعة القلب من غزلان أخبية ∴ تكاد تسكر من أحداقها الراح

وكذلك نجده يشبه العين بالنرجسة ، والعين بالسوسن والصدر بالرمان ، والخد بالتفاح جمع ذلك كله في بيت شعري واحد فقال:

فالعين نرجسة،والشعر سوسنة ∴ والنهد رمانة ، والخد تفاح

ونجده يشبه أسنان المحبوبة بالدرِّ والياقوت ، والخد بالورد يصور ذلك فيقول :

أنال من ثغرها الدّري ما سألتْ ∴ نفسي، ومن خدّها الوردي ما اقترحت

وكذلك يصور البارودي عين المحبوبة بأنها فاتكة مؤثرة حتى أنها من شدة تأثيرها لو نظرت بها إلي الحجر الأصم لنبع منه الماء وكذلك يصور خطوها في دلال أبطأ من خطو الحمام وإن نطقت فنطقها إيماء وإشارة يصور ذلك فيقول :

هيفاء مال بها النعيم فخطوها ∴ دون الحَمَام ونطقها إيماء
ترنو بأصور لو تمكّن لحظة ∴ من صخرةٍ لا رفّضّ منها الماء

ومرة أخرى يرسم لها صورة من خلال البيئة التي تحيط به فهي خدها ورد" ، وشعرها بنفسج ، وقدها كالغصن وعينها عين غزالة وما أجمل هاتيك العينان فهما كحلا وإن يصور ذلك فيقول :

كالورد خداً والبنفسج طرة ∴ والغصن قداً ، والغزالة مقلتا
نظرتْ بكحلا وين أودعتا الهوى ∴ بالقلب حتى هام ثم تخلنا

ثم نجده يصور كفل المرأة بالكثبان الرملية وهذه صورة منتزعة من البيئة الصحراوية ، ويشبه قوامها بالرمح في اعتداله ثم نراه يعمد إلي التشبيه المقلوب حيث يجعل المحبوبة أصلا في وجه الشبه والعنصر الكوني أو الطبيعي فرعاً عنه فالغصن يشبهها إن تثنت ، وملامح البدر إن ظهرت تشبه ملامحها يصور ذلك فيقول :

أحاط علي مثل الكثيب إزارَها ∴ ودارت علي مثل القناة الوشائح
ففي الغصن منها إن تثنت مشابه ∴ وفي البدر منها إن تجلت ملامح

ولم يفته أن يصور قرطها ويصور حركته ولمعانه علي صفحة جيدها كأنه قمر وشبه صفحة جيدها بمطلع الفجر يقول :

كأن اهتزاز القرط في صفح جيدها ∴ سنا كوكب في مطلع الفجر لائح

وفي النهاية لا يسعني إلا أن أقرر مع من قرر أن البارودي صادق في أحاسيسه وأنه يمتلكه الأدبية صور المشاهد تصويراً ينبض بالحركة والحيوية يستوي في ذلك المشاهد الحسية والمشاهد النفسية والمعنوية يقول دكتور شوقي ضيف :

((البارودي بمكلته الخيالية التي أتاحت له تصويرى المشاهد الكبيرة تصويراً ينبض بالحركة والحيوية الدافقة ولا نقصد المشاهد الحسية وحدها بل نقصد أيضاً المشاهد النفسية إذ استطاع أن يرسم ما يجري من حوله وفي نفسه رسماً تخطيطاً دقيقاً :

ويلاه من لحظها الفتاك إن نظرت ∴ وآه من قدّها العسّال إن سنحت
كالبدرإن سفرت والطبي إن نظرت ∴ والغصن إن خطرت والزهر إن نفحت

وقوله :

حنتْ وثنت عطفتْ مالتْ صبتْ عزمتْ ∴ همّتْ سَرَتْ وصلتْ عادت دنت ممنحتْ

والبارودي كما تأثر بالنموذج العباسي في معانيه وأفكاره فهو لا يبتعد في معانيه الغزلية عن نهج أسلافه فقد وجدناه في وصف

الحبيبة وفي وصف محاسنها ينعتها بما كان ينعت به هؤلاء محبوباتهم وكما حاكاهم في موضوعاتهم وأفكارهم حاكاهم في أسلوبهم ولفظهم فلقد اعتمد علي الأسلوب الرهين الفخم محافظاً بذلك علي المثل العباسية والجاهلية كما اعتمد في أساليبه غلي الاستطراد في التشبيه أو الوصف القصصي شأنه في ذلك شأن سابقيه من الأسلاف .

الخاتمة

وبعد هذا وما هذا إلا قليل من كثير في ديوان لبـــارودي نقـــرر مطئنين أن البارودي كان غزله صادراً عن عاطفة ألهبها الحب وليس كما قال عنه محمد حسين هيكل في مقدمة الديوان أن حبه وخمرياته لم يصدرا عن عاطفة صادقة بل لا يزيد علي صورة تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يذهب إليه الظن أنها صورة رآها في ليلة انس فأعجبتـــه فخلع عليها من شعره معاني الغرام ، وإن لم يكن حب ولم يقم بنفسه غرام[١] .

وأنا مع من ردَّ علي الدكتور زعمه فالـــدكتور شـــوقي ضـــيف يقول :

((أما أن البارودي لم يصدر في حبه ولهوه عن عاطفة حقيقية بمقدار ما صدرت عن معارضة القـــدماء ومحاولـــة أن يبـــدهم فـــي الميدان فإن في ذلك انحرافاً عن تبين حقائقـــه العاطفيـــة ومجـــاوزة القصد ، ولم تكن له في الحب تجربة واحدة ، فقد كان له تجربة ثانية أخذ الحب فيها عليه طريقة وملك عليه قلبـــه وأهـــواءه وعواطفـــه وحسه وشعوره ونقصد به حبه لفادة جزيرة الروضة ، وحبـــه لهـــا أقدم من حبه لفادة حلوان ، ولم يسطع الحب الجديد أن يمحو الحـــب القديم فقد ظل يصطلي بناره المحرقـــة ، وظـــل يثيـــر فيـــه دقـــائق الأحاسيس والمشاعر بما نعم فيه من اقتطاف ثمراته .

وهكذا كانت المرأة في حياة البارودي حقيقة وواقعاً ، ولم تكـــن بمنأى عن قلبه ومشاعره كما زعم البعض فهو رجل سوى وشـــاعر مفلق ، تسيطر عليه النظرة التي تمس شغاف القلوب ، والبـــارودي شاعر تقوده المشاعر فلابد من أن يستوقفه هذا الجمال الحسي ومـــا

(١) الصورة والبناء الشعري د. محمد حسن عبد الله ، صـــ٣٧ .

يعقبه بعد ذلك من جمال روحي ومعنوي ، فمـــا يكـــون منـــه إلا أن يعزف علي أوتار ذلك الجمال بغزل رقيق في محاسنها ، ورثاء عميق بعد رحيلها ، والبارودي أحب المرأة أماً وبنتاً وزوجة وحبيـــة فهـــو مقدر للمرأة بكل ما تحمله هذه الكلمة مـــن معـــانٍ ، وبهـــذا كـــان البارودي شاعر محب استطاع أن يخلد المرأة وعواطفه حيالها فـــي ديوانه الأغر مما جعلها عنده أهلا لأن يبحث فيها وعنها في ديوانه .

المراجع

١- الأسلوب – الأستاذ أحمد الشايب.

٢- العقد الفريد – ابن عبد ربه، المطبعة الشرفية – الطبعة الثالثة.

٣- البارودى رائد الشعر الحديث – دكتور شوقى ضيف – دار المعارف.

٤- الغزل فى العصر الجاهلى – دكتور أحمد الحوفى – مطلعة نهضة مصر – الطبعة الثالثة.

٥- النقد الأدبى الحديث – أحمد كمال ذكى.

٦- اللغة والدلالة فى الشعر – دكتور على عزت.

٧- الصورة والبناء الشعرى – دكتور محمد حسن عبد الله.

٨- جمهرة أشعار العرب – القرشى – دار بيروت للطباعة والنشرز

٩- دراسات فنية فى الأدب العربى – دكتور عبد الكريم اليافى – مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٣.

١٠-ديوان البارودى، شرح وتحقيق – على الجارم، محمد شفيق معروف.

١١-فصول فى الشعر ونقده – الدكتور شوقى ضيف – دار المعارف.

١٢-مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق – العدد العشرون.

١٣-مجلة فصول المجلد الأول – يناير ١٩٨١ – بحث دكتور سليمان العطار، الأسلوبية علم وتاريخ.

١٤-مقدمة ديوان البارودى ٠